رواية
المتشكل
ندى ممدوح & هدير ممدوح

المتشكل

ندى ممدوح

هدير ممدوح

تصميم غلاف:

Walaa Badraldien

رواية:

المتشكل

للكاتبة:

هدير ممدوح

ندى ممدوح

المقدمة :

هَلُم أيها المرتحل بين ثنايا الكتب فكتابي ليس كمثله، ولكن حذار فإن كنت خفيف القلب لا ترتحل معنا وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فهُنا يكمن الخوف وإياك والليل فربما يكون المتشكل مختبئٍ أسفل فراشك لينقض عليك ويسلبك اغلى ما تملك..

نعم، نعم .. يسلبك حياتك.

فهي حتمًا أغلى ما تملك..

وكل ما تملك..

ولا تقل أني لم أحذرك يا صاح.

1 ـ الأم المفجوعة

كانت ليلةٌ شاتية، الأمطار كانت تنزل بغزارة ودون توقف، والجو ساقع شديد، والليل مظلمٌ حالك وارى قمره السحاب مستخفيًا من الأمطار، كنتُ في تلك الليلة العاصفة أقفُ أمام النافذة المفتوح ضلفتيها، أتامل حُبيبات المطر التي تهطل وأنا أُسبح الله، وربما دَعبت بعضُ قطراتها بأناملي بابتسامة خفيفة لا تكاد تظهر، الشوارع خالية من المارة والسيارات خيفةً بسبب ظلامُ الليل، وإتقاءً لماء المطر، حتى إنني لم أستطع ترك مركز الشرطة بسبب تغير الجو فجأة، وبينما أنا على هذه الحالة من السرحان، إذ تناهى إليَّ صوت

صراخ امرأة ممزوجًا ببكاء يقطع نياط القلب حزنًا من شدة ما به، فهمني أمرها، واتعبني صوتها، وخرجتُ شبه راكضًا، تلهم خطواتِ غرفة مكتبي إلتهامًا، وعندما خرجتُ وجدتُ العسكري يقول لها مزمجرًا، وناهرًا في قسوة من طبيعة عمله :

_ يا سيدتي اخرجي الآن رجاءً وتعالي غدًا، ألا ترين حالة الجو؟

فحدجته بنظرة نارية، وهتفتُ فيه بصوتٍ صارم :

_ خِل سبِيلها يا (سيد)، اتركها لقد أتيتُ إليها.

وصوبتُ نظري إليها وهممتُ بسؤلها عمَّا بها، إلا إنها كغريقٍ تشبث بذورق نجاة ركضت نحوي وهي تقول بصوتٌ مبحوح، متهدج :

_ ابنتي، ابنتي، ابنتي...

كانت تهذي بتلك الكلمة ولا غيرها وببكاء لا ينقطع كان له عظيم الأثر في نفسي، إنها على ما يبدو أُم مفجوعة في وليدتها، ولكن ما الأمر؟

ما سر أتيانها إليّ؟

هدأتها وأنا أقول بشفقة، وصوت مفعم بالحيرة :

_ اهدأي يا أختي لعلني أفهم منك ما أصاب ابنتك، أرجوكِ اهدأي ستخرج روحك من كثرة البكاء!

فكفت عن البكاء دفعة واحدة، وهي تنظر ليّ في تمعن حتى ظننتُ إن عينيها قد نفذت في داخلي تحرقني حرقًا، ورأيت الدمع يتحجر في محجريهما.. بل على الأحرى كلها تجمدت، وهي تقول ليّ بصوتٍ خالٍ من الحياة شبه ميت:

_ وألم تخرج روحي يا رجل؟ ها اجبني ألم تخرج؟ لقد خرجت و وارت الثرى وبقى الجسد على الأرض، ماذا تظن بالأم التي تفقد (ولدها) إنها

تحيا! إذن أنت لا تعرف معنى كلمة ابن، لم تذق كلمة (بابا) لقد خرجتْ روحي خرجت دون كفن ولا غُسل، لقد تصدع قلبي الآف المرات منذُ غياب ابنتي.

كنتُ أعلم عن فقدان الأطفال في تلك القرية التي ألتحقت بها آنفًا، لكنني لم أتصور إني سأواجه أمٌ مكلومة في أول يومين ليّ هُنا، وقبل أن أفعل شيء حتى، فلم أزل لم أحقق في الأمر..

لم أذهب إليهم وأتحدث معهم..

لكنني حاولت تهدأتها وأنا أقول لها مهونًا :

_ أهدئي رجاءً يا سيدتي، دعيني أفهم منك جُل شيء، وكفي عن البكاء رجاءً فإنه لن يجدي نفعًا..

كانت دموعها تحرق سويداء قلبي ألمًا ربما لأنني لم استطع فعل شيء! لا أدري حقًا غير إنني لم

أعد باستطاعتي رؤيتها منهارة بسبب أمرًا موضُوع على عاتقي، وقد حملتني مسؤلية ابنتها.

رويدًا رويدًا بدأت تهدأ، فغمغمتُ بابتسامة باهتة :

_ هلا نتحدث في مكتبي؟! لتخبريني ما حدث، لقدُ جئتُ حديثًا وأريد أن أسمع منكِ كل شيء، وكوني على يقين بأني سأفعل كل ما بوسعي لأستعادة ابنتك.

أخذتها إلى مكتبي وطلبتُ لها كوبًا من عصير الليمون عساه يهدأ أعصابها، ويخفف من حدة بكاءها الذي لم ينقطع، كانت تجلس على المقعد المقابل ليّ وعيناها تذرفان بلى توقف، دمع يضني القلب همًا، وتنحنحت لأخرج ذاتي من قوقعة الحزن التي اعترتني، وقُلت لها بصوتٍ حازم وأنا أشبك أناملي أمام وجهي :

_ هلا أخبرتيني يا سيدتي كيف ماتت ابنتك بالتفصيل، كل التفاصيل لا أريدك أن تنسى حتى لو أمرًا تظنيه تافه.

نظرت إليّ بأعين فاترة، وشرد بصرها بغتة، وارتجف جسدها على نحو عجيب، وبدت كأنها تسترجع ذكرى أليمة ومرعبة، وبدأت..

بدأت تحكي ما لم يخطر على قلب بشر..

ولا يستوعبه عقل..

وبصوت باكي شاهق متلعثم راحت تقول :

_ استيقظتُ يوم السبت فلم أجد ابنتي في المنزل، والباب موصد بل محكم الإغلاق عسير على طفلة كأبنتي أن تفتحه بمفردها، والدار خالي تمامًا منها ..

بترتُ قولها في اهتمام وأنا أتفحص كل خلية من خلياها لردة فعلها عن كل ما تقوله :

_ كم شخص كان بالمنزل يا سيدتي؟ أين والدها؟!

مسحت دموعها بكفيها وهي تتطلع فيَّ، وأجابتني :

_ والدها متوفى وكنت أسكن بمفردي مع ابنتي بعد وفاته.

سألتها وأنا أعود بظهري لظهر المقعد في جدية :

_ من يأتي لزيارتكم بالتحديد؟

هزت كتفيها وهي تجيب في بساطة :

_ أخي، فأنا ليس ليّ غيره والداي متوفيان، ولا يأتي عادةً إلا لماما.

غمغمت، أسألها :

_ ماذا فعلتِ حين لم تجدي ابنتك إذن؟

صمتت مليًا وعادة الدموع تتجمعان في عينيها، وأسبلتهما لثوانٍ راحت خلالهما دمعها يهوى هويًا على وجهها، وفتحتهما تنظر ليّ، قائلة :

_ جُننت وهجت ومجت وشرعتُ كالمجنونة أبحث عنها في كل أرجاء المنزل، وفي الخارج وتجمع أهل القرية حولي ولم يكفوا عن البحث معيّ...

سكتت لهنيهة انتحبت خلالها بقوة حتى خُيل ليّ إنها ستسقط مغشيًا عليها، ولم أجرؤ على التفوه ببنت شفة، حتى قالت بصوت متهدج :

_ لم نعثر لها على أثر قط حتى ....

انخرطت في بكاء رهيب وهي تضرب على موضع قلبها، فسألتها في اهتمام وأنا أهب واقفًا وأدور حول المكتب :

_ حتى ماذا يا سيدتي تابعي كلي أذآن صاغية.

لم تجب وبدت كأنما لم تسمعني، حتى تأوهت تأوه يفلق القلب حزنًا، وهمست بصوت مكتوم :

_ حتى عثرنا عليها في منتصف الليلة الثانية من غيابها مق....

انحبست الكلمات في داخلها فجأة كأن صوتها قد فُقد، ثم أردفت تقول بأحرف متقطعة :

_ وجدتها مقتولة، بل مذبوحة، بل ... آه يا ابنتي..

إلى هنا وغطت وجهها بين كفيها وانغمرت في بكاء مرير يُدمى أعتى القلوب المتحجرة، حتى إن عيناي قد دمعتا تأثرًا، ومارت بداخلي قوة رهيبة أن أدمر تلك العصابة لآخر رمق..

لا أعلم إن كانت عصابة تلك التي تقتل الأطفال أم لا ..

لكن المنطق يقول إنـها هكذا..

وأنا سأشمر عن ساعدي، وسأشحذ همتي للنيل منـهم جميعًا وأوردهم مورد الـهلاك..

وسألقي بـهم في غياهب الظلمات...

لن يـهدأ ليّ بال حتى أفعل هذا..

لن ترقأ لجفناي نوم حتى أنل منـهم...

في صباح اليوم التالي، بالتحديد ما أن ألقت الشمس بضوئـها على الأرض وانطلق اول شعاع لـها، حتى قفزت خلف عجلة قيادة سيارتي وانطلقت بأقصى سرعة إلى المستشفى، وذهبت

إلى المشرحة لأرى الجثة، جثة الطفلة التي لم تواري الثرى بعد، ولم يُثلج قلب أُمها، وانفزعت بقسوة وأنا أرى الطفلة وارتجف قلبي في عنف قوي، وأنا أحدق فيها، كان الأمر رهيب..

رهيب بحق..

بل مخيف يثير الرعب..

كانت الطفلة متسعت العينين في رعب كأنما رأت ما يفزعها ويرهبها و وجهها أزرق فاقد لكل قطرة من الدم كحال جسدها الذي سُلب منه الدماء حتى آخر قطرة، عينيها رغم الفزع المطل منهما كانتا تغرقان في بحر من الدم الجامد على نحو مهيب، وثمة جرح عميق في عنقها يدل على إنه تم ذبحها دون أدنى رحمة، أسبلت جفناي عن مرآها وأنا أرفع الغِطاء الخفيف على وجهها في ألم.

وشعرت بقبضة تعصر قلبي ألمًا..

وسمعت بكاءً مرير..

بكاءً يصدر من فؤادي على ما حل بتلك الصغيرة..

والصغار عامةً..

وتولد في أعماقي طاقة رهيبة من الأنتقام

والقضاء على من كان السبب مهمًا كان..

وكانت روحي تتسائل في أسف، تُرى كيف تحملت

الأم رؤية ابنتها بهذه الحالة؟

كيف لم يتوقف قلبها في الحال؟

وشعرت بشفقة تغدق كل كياني حيالها وفي

صميمي كنت أوعد نفسي بأني لن أترك تلك

القضية لآخر رمق.. .

وفي جنازة الصغيرة يوم الدفن كنت أسير وسط

ابناء القرية متخفيًا بأنني أحد أقارب والدها البُعاد

حتى لا أثير الشبهات حولي ويعرف أحد هويتي..

سأعيش مع أهل القرية على إني واحد منهم وسأقوم بواجبي، وسأؤدي عملي على أكمل وجه.

وتردد في داخلي صدى رهيب على صغيري الذي ليس ليّ غيره..

صغيري المصاب بالتوحد..

ماذا لو حصل له شيء!

وألقيت نظرة على ملامح ابني الطفولية وهما عند القبر، وامتزج بداخلي شعور مخيف يحثني على إخفاءه، لكن أين؟

أنَّى أخفيه عن رعب تلك القرية؟

كيف أحميه من كل ما يحدث فيها؟!

يا إلهي!!.

وشددت راحتي على كفه الصغير وأسبلت جفناي في ألم..

صوت صراخ الأم المفجوعة كان يصك أذني كصيحة وحش جريح لا يدري كيف يداوي جرحه، ولا يعرف كيف ...

حاولت النسوة تهدأتها بشتى الطرق لكن لا جدوى..

فقد ارتمت على قبر ابنتها وهي تصرخ بقلب مكلوم :

_أقسم لكِ يا بنيتي ألا أرحم أحد، أقسم لكِ أن أجعلهم يتوجعون كما توجعتي، أقسم يا حبيبة قلبي بقدر نزيف قلبي و وجعه أن أخذ حقك، آه يا صغيرتي آهٍ يا قلبي.

بدت ليّ إن فؤادها قد أندلعت فيه النيران..

نيران محرقة..

توقدت دون إنطفاء..

ولن تنطفئ قط.. لن.

يتبع ...

#المتشكل

#ندى_ممدوح

2 _ الشبح

أبناء القرية دون أستثناء جميعهم أُناسٌ كِرام، يتسمون بالطيبة وحسن الجوار، فبرغم إنني غريبٌ عنهم، وقد استأجرت إحدى البيوت الفارغة من قاطنيه كان الجميع يقوم بخدمتي، النسوة يهتمون بابني، والأكل يأتينا مع الرجال، لقد أشعروني بأني واحدٍ منهم يعرفونه منذُ زمن، ويقتسمون معه اللقمة من مولده، فلا عجب كيف ينبت من بين تلك الزهور الجميلة زهرة فاسدة؟!

زهرة تبث سمها بتلك الطريقة السيئة؟!

لا غرو! ربما ملء الحقد تلك الزهرة البشعة فأرادت أن تحتل المكان كله!

" لـ .. لماذا لا تقول شيئًا؟ "

انطلقت هذه العبارة بصوت متقطع لتنزعني من حالة الشرود التي اعترتني، من (حمدان) وحمدان هو شاب رث الملابس والهيئة يحبونه أهل القرية جميعًا من كبار وصغار، وحق لهم ان يحبوه فهو طيب القلب، طاهر النفس، يدعون إنه فقد والديه في حادث مفاجئ ومن حينها وهو فاقد العقل.

تبسمت وأنا أجيبه بمودة :

_ وماذا أقول يا (حمص)

كان هذا هو لقبه (حمص) لا أدري لِمَ!

ربما لإنه ضئيل الجسد جدًا نحيفه؟!

ورأسه صغيرة .. صغيرة جدًا، وأصلع؟!

تمتم (حمص) بأحرف متقطعة، ثم جمعها مرددًا :

_ هل .. هل ستبقَّ معنا إلى الأبد يا (حاتم)

ربت على كتفه، وأنا أقول :

_ ربَّما يا حمص من يدري!

نهض حمص فور عبارتي وراح يدور حول نفسه ويقفز بحركات أشبه ببهلوان، وهلل من شدة الفرح بصيحات مضحكة.

فسحبته من ذراعه ليجلس وأنا اكتم ضحكاتي، قائلًا :

_ كفى يا حمص .. اجلس اجلس يا فتى هيا.

جلس حمص وهو ينظر ليّ متسع الفم ببلاهة، وتمتم :

_ لقد أحببتك كثيرًا يا حاتم.

فقُلت مغمغمًا وأنا أنظر إلى عينيه الضيقتين جدًا :

_ وأنا أيضًا يا فتى.

تحمحمت وأنا أميل نحو (حمص) برأسي، وسألته بصوتٍ خفيض كلا يصل إلى ولدي :

_ أخبرني يا حمص، هل تعرف شيئًا عَمَّا يتفوهون به أهل القرية؟

هل حقًا ما يقولون عن قتل الأطفال ذاك؟!

طَّل رعب هائل من عيناي (حمص) الضيقتين، وبان لونهما الأسود كأنه طِلاء مخيف، وانتفض جسده على نحو يثير الحيرة، وندت عنه كلمات غير مفهمومة، ثم قال بكلمات متقطعة خائفة :

_ أنهم يقتلون .. يقتلون الأطفال دون ذرة رحمة يا حاتم وأنا خائف، خائف أن يقتلوني ..

ارتمى على صدري فجأة باكيًا كطفلٍ صغير، ولوهلة لم أعرف كيف أهدئه، ولا كيف ابث السكينة في جسده المرتجف، فقُلت له :

_لا تخف يا حمص لن يؤذيك أحد يا فتى أنا معك.

وسألته وكلي أمل :

_ لكن من هم يا حمص، هل تعرفهم؟

اعتدل حمص ومسح عيناه بكفيه وهو ينظر إليّ، وقال بصوتٍ هامس :

_ نعم اعرف، اعرفهم بالطبع!

قُلت بلهفة وأنا أمسك كتفيه :

_ من هم يا حمص.. من هم؟

سكن جسد حمص عن الحركة واتسعت عيناه وهو يقول :

_ الجن..

فرددت مبهوتًا :

_ الجن!

أومأ حمص برأسه قائلًا بسرعة :

_ نعم، إنهم الجن من غيرهم يفعلون هذا؟

رددتُ عليه بإحباط :

_ أنت أيضًا يا حمص تظن ذلك، لا وجود لكل ذلك يا فتى إنهم من محض خيالكم الواسع فقط، لا بأس .. لا بأس.

توالت الأيام بعدُ ذلك.. هادئة لا يشوبها أي شائبة، ومر بيَّ شهر في القرية ولم يُقتل أيُّ طفل، ولم تُجزع أي أم، السكون كان يغشاها، والحياة عادة إلى وتيرتها، كأنما نسى الجميع ما يحدث بغتة.

حتى جاء اليوم الذي فيه انقلب كل شيء، فبينما الناسُ نيام، وأنا وابني نائمان اخترقت صرخة قوية أُذني، وهزت قلبي هزًا.

ورجت الأرض رجًا شديدًا ساحقًا.

وأحسست بالأرض تهتز بقوة بيدٍ من فولاذ، أو إنه بُركان ناري تفجير حممُه في التو واللحظة.

او زلزال قوي زلزل الأرض وقلبي.

فتحت عيني في فزع والفراش يرتج رجًا عنيفًا، لا .. لم يكن الفراش فقط هو من يهتز، فـ الأرض والجدران كانت تهتز بصورة رهيبة تثير الرعب في أعتى القلوب.

فاتسعت عيناي حتى شعرت بأنَّ مقلتاي ستخرجان من محجريهما، وتدلى فكي السفلي من قمة ذهولي، وفي غمرة دهشتي نسيت ولدي، الذي خطر على بالي بغتة، فإذا بي انزع نفسي من

صدمتي وجمودي وانظر بجانبي، فرأيت ابني (لؤي) شاخص البصر على الحائط، وهو يرتجف كأنه رأى شيءٍ ما، بدا ليّ كانه لم يشعر بما يحدث.

لم يحس بالفراش الذي كان يهتز وسكن فجأة..

لم يشعر بالجدران والشقة التي كانت تُرج رجًا عنيفًا مهيبًا..

فأنتشلته في حضني، وضممته إلى صدري، وأردت أن اتفوه بأي كلمةً اطمئنان، لكن كل الحروف انزوت فجأة وانحسبت في حلقي، فروحت أربت على ظهره بكل حنو، وعيناي تدوران في زوايا الغرفة بحثًا على اللاشيء.

وفجأة، تجمدت مكاني، وتحجرت مقلتاي على الحائط.

كان الموقف يثير الرعب بحق...

ولا غرو أن تتحجرا عيناي على هذا الشيء الأسود الذي يخرج من أسفل الأرض، مخترقًا الجدار .. مهلًا مهلًا آراه يتحول رويدًا رويدًا ليصبح بهيئة إنسان.

انسان طبيعي للغاية بجسدٌ بشري، وبشرة بشرية، ذا عينان وحاجبان وشفتان و وجنتان كل شيء لكن كيف؟

يكاد نبض قلبي يتوقف من هول ما أرَ، وتحرك الشيء، تحرك خطوة واحدة بقدمه وما كاد يتقدم الآخرى حتى رجت صرخة عنيفة منه، وراح يهز رأسه بشر وهو ينظر إلى ولدي بشيءٍ من الجوع، وفجأة ..

تفجرت معالم الغضب في كل خلجة من خلجاته، وتميز غيظًا، وهو يحدق في صغيري بكل توعد، ثم أولنا ظهره وأخترق الجدار بهيئته البشرية..

واختفى! وبقيت أنا على حالي، لم أستوعب كل ما دار، إلا حينما حُط جسد ابني على كتفي وهو ينظر إليّ بذعر، فضممته إلى صدري وانا لا أدري، هل أبثه هو بالأمان أم إني ابعثه في نفسي؟

خرج صوتي متقطعًا، حائرًا وجسد الصغير ينتفض :

_اهدأ يا صغيري إنه مجرد كابوس، كل شيء كابوس، أنا هنا .. معك يا حبَّة قلبي.

وسرت رعدة قوية في كامل بدني، عندما رفع الصغير رأسه ونظر ليّ بمقلتان تذرفان الدمع.

يا إلهي إنه يرجوني أن نرحل..

صغيري خائف يرتعد وأنَّى ليّ إن اهدئه؟!

وانا لا اعلم ما هذا الشيء الغريب!

وما كنهه وما يخبئه لنا الزمن!

لانت ملامحي المتهجمة، وتغير امتقاع وجهي، وانا أغتصب بسمة ناعمة على شفتاي، واتبسم مغمغمًا بهدوء وأناملي تمسد على شعره :

_ والدك هنا يا حبيبي، بجوارك محال أن يسمح لأي احد ان يؤذيك ما دام في صدري نفسٌ يتردد.

وقبلة جبينة بقبلة حنون بوعدٍ صادق وأنا اختم حديثي، بقولي :

_ ثق في أبيك يا حببي، فأنا اضحي بنفسي لأجلك دون تردد.

لاحت شبه ابتسامة على محيا الصغير، وفَرَّ الدمع من حيثُ أتى، ولم تمر لحظات، وإذ يتناهي لنا صرخة شقت سكون الليل شقًا، وزلزلت الأرض ومن عليها، لذا وبدون تردد تركت الصغير وهرعت للخارج، لكن قدماي تيبستا لثوانٍ بخوفٍ جلي على الولد، فخشيت أن يعود هذا الشيء

ويؤذيه، فعدت لأحمله واعدوا متتبعًا مصدر الصوت.

اطل الهلع من عيني وأنا أرى أب وأم يحتضنان والدهما الراقد ارضًا، وقد ذهبت الروح لبارئها، وخبى بريق الحياة من عيناه الشاخصتان في رعب، وراعني كيف قُتِل!

من ذا الذي يملك قلب على ذبح طفلٍ صغير؟

من ذاك متحجر القلب الذي يقتل اي روح هي لرب العالمين؟!

فدفنت رأس صغيري في صدري كلا يرى ما أرى؟

كي لا يُنتزع قلبه الصغير من مكمنه!

انخلع قلبي وأنا أكاد أنهار ارضًا في عجز، وقد تجمع كل أهل القرية، وساد بكاء النسوة الأقارب والأغراب..

الجميع يتشاركن البكاء مع الأم المكلومة.

وحق لطوب الأرض أن يبكي لوفاة مثل هذا الملاك!

وقد خُيل ليَّ أن الأحجار والسماء والأرض تبكي وتنوح!

فانخرط فؤادي بالبكاء دون بكاء العين، وتمزقت اوتاري ألمًا وعجزًا وقهرًا.

ما أقسى شعور العجز عن انقاذ روحٍ كانت لها الأثر في القلب.

أتتعحبون! لا تتعجبوا فيمكن لغريب أن يصير أقرب قريب!

فالأقارب ليس بالدم، الأقارب هم من تألفهم الروح!

فلا غرو، أن يحزن قلبي، وتبكي عيني.

وهذا الصغير مذ دقائق كان يلهو مع والدي ببراءته الطفولية.

فسبحان الله! كيف تتقلب الأحوال، وفي لحظة تنقلب الحياة.

ومن كان أمام أعيننا يواريه الثرى دون وداع!

فيا ليت للموت وداع!

كي نملأ أعيننا من الأحبة قبل الفراق.

دمعة حارقة فرَّت من آماقي، فأسرعت بمسحها سريعًا بأناملي، قبل أن أتجول بعيني في الأرجاء، وقبل أن يستكين نظري، لمحت أحدًا ينظر من بعيد، لم أتبين ملامحه بسبب الظلام، وقد غاب القمر وراء السحاب مكملًا ليلة الرعب والأحزان تلك.

فانزلت صغيري، وأنا اعدو نحوه، هاتفًا :

_ قف مكانك يا هذا قف.

لكن الجبان ركض مبتعدًا ما أن لمحني.

عيون الجميع تعلقت بيّ وأنا ادفعهم من أمامي دفعًا عنيفًا بدون تركيز، وكان البعض يفسح لي الطريق بخوف، صخرة بارزة سدت طريقي فقفزت من فوقها وعيناي لا تبرحان الشبح الراكض، وراحت المسافة تنزوي بيننا.

وأمسكت بذراعه وانا اضرب قدمي في قدمه، فيسقط أرضًا على وجهه، فملت عليه لأرى ملامحه وقبل ان افعل، حدث ما لم يكن في الحسبان.

ففجأة!

أختفى كأنه لم يكن!

كأني في حلم وها انا ذا افق منه.

ودرت حول نفسي، وأنا مذهولًا لا أصدق، وعيناي تدوران بحثًا عنه، وصرخت بما يختلج في صدري :

_ أين ذهبت يا هذا؟ أين روحت أيها الجبان؟ تعال واجهني ولا تختبء مثل الثيران.

ودوى صدى صراخي في اذني معلنًا عن فشل جديد في حياتي.

لقد اختفى!!

كيف يختفى هكذا؟

كيف؟!

لكن السؤال بقى معلقًا دون إجاد إجابة تُريح البال..

3 _ المشتبه بهم

منذُ ذلك الحادث والأمور لم تعد بخير، ثمة أمرٌ يثيرُ الحيرة حتمًا، فمع بداية كل شهر، يبقى الجميع خائف مترقب، إذ مع كل بداية اول شهر هجري، يُقْتتل غلامٌ صغير مصفي الدم، ولا تسْألْ عن حالة الآباء والآمهات، فذلكُم سببٌ مرعب، وطأته ترعد قلبي وأنا أترقب معهم، عاجز عن فعل أيُّ شيء.

(كُنت أريدُ أخبرك بشيءٍ ما يا حاتم، لا أدري هل أقوله أم لا)

قالها (حمص) بصوته المتهدج، منتزعني من شرودي، وأنا أجلس على ضفة النهر وبكفي بعض

الحصوات الصغيرة التي ألقيها بداخله أثناء تفكيري، فألتفتُ إليه بأعيُن متسائلة، وأنا أفسح له مكانًا بجانبي :

_ تعال يا حمص شاركني الجلسة.

وما إن أجلسته برفق، حتى بادرته قائلًا باهتمام :

_ بما كنت تريدني؟

فتلفت حوله كمن سيلقي سرًا خطيرًا، ومال عليَّ قائلًا في تلعثم :

_ عم إبراهيم صاحب البقالة يوم قتل الصغير كان بالخارج لقد .. لقد رأيته.

فقطبت جبيني بتفكير، وأنا اسأله :

_ أحقًا ما تقول؟

أومأ (حمص) مجددًا، وعاد يميل نحوي هامسًا بصوتٍ خفيض :

_ نعم لقد رأيته يخرج من بقالته ويغلقها خلفه وبدا خائفًا مرتبكًا ودخل إلى منزله ولم تلبث الصرخات أن تعالت وعرفنا بقتل الصغير.

غمغمت في حيرة، والتفكير يستبد بيَّ :

_ يا إلهي ما تقوله مهم للغاية وقد يعني إنني امسكت بطرف الخيط.

ردد (حمص) وراءي ببلاهة :

_ أمسكت بطرف الخيط؟

وهز رأسه ومنكبيه وهو يستطرد :

_ أيُّ خيط هذا! هل تريد خيط؟

واسترسل وهو يهب واقفًا في حماس :

_ سآتيك به حالًا فأنا لدى خيط.

حاولت إيقافه وأنا اناديه، لكنه كان قد ولى راكضًا بحركته المتعرجة.

☆☆☆☆☆☆

لم يكُف عقلي عن التفكير، وأنا في طريقي إلى بقالة عم (إبراهيم)

كان عليَّ أن أحسم سبب تواجده في بقالته حتى منتصف الليل، فأمَّا يكون هو المجرم، إمَّا يعرف شيئًا .. وشيئًا مخيفًا يستوجب السرعة والإدراك التام بكافة كل شيء قبل فوات الأوان.

عبرت عتبة البقالة بقفزة واحدة، وأنا القي السَّلام علىٰ الرجل، الذي نهض في ترحاب شديد رادًا السلام وهو يدعوني للجلوس على مقعد سحبه من وراءه :

_ وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته،

تفضل يا استاذ حاتم بالجلوس أنرت بقالتي.

فجلست مبتسمًا وأنا أشكره :

_ أشكرك يا عم إبراهيم، الصراحة إنني وددتُ الحديثُ معك في أمرٍ هام.

فرد الرجل في سعة صدر وهو يكاد يجلس :

_ بالطبع يا بُني كُلي أذانٌ صاغية...

وهب واقفًا مع حضور امرأة تبتغي شراء شيئًا، فباعها ما تُريد وعاد يجلس أمامي قائلًا :

_ ها انا ذا ماذا كُنا نقول؟

ومال نحوي وهو يشبك كفيه أمامه، مغمغمًا :

_ بمَ كُنت تريد الحديث معي، تفضل.

فملت شطره بدوري وأنا أمعن النظر داخل حدقتيه، قائلًا في هدوء :

_ صراحةً أُريدُ أن اسئلك بعض الأسئلة ...

وخفضت صوتي مستطردًا في تريث شديد :

_ في حوادث القتل هُنا.

فتراجع الرجل في مقعده وهو يُردد منفعلًا :

_وبأي صفة؟

فأجبته بصرامة منفعلة :

_ بصفتي العقيد حاتم طنطاوي من المباحث الجنائية.

اتسعت عينا الرجل لوهلة قبل أن يخفضهما وقد راعه صراحتي، ولم يخف عليَّ توتره الذي تجلى علىٰ ملامحه تثير الدهشة، ثم قوله في تلعثم محير :

_ سَل ما بدا لك أيها العقيد.

تراجعت في مقعدي في تراخٍ وأنا أغمغم :

_ ما الذي كنت تفعله في بقالتك منتصف الليل في الليلة التي قُتل فيها ابن السيد علي؟

ولوحت بسبابتي في وجهه محذرًا :

_ وإياكَ والكذب يا عم إبراهيم كُن صادقًا معي.

زاغت عينا الرجل، وصمت مليًا بدا بتفكير، كأنه يبحث عن ثغرة ينفذ منها، ولوذت بالصمت بدوري ولم اتعجله لئلا يهاب شيئًا وأنا اسبر اغواره.

وتردد لحظة، انفرجت فيها شفتاه وأطبقتان، ثم رفع هامته وهو يقول بصوت كان يجاهد لئلا يطغى عليه ارتباكه :

_ ولمَ اكذب يا بني؟ بالفعل كنت هنا في البقالة لساعة متأخرة من الليل؛ أرتب البضائع التي ابتعتها وقد اخذت معي وقت طويل، فأنت تعلم لا املك من يساعدني، لذا اقوم بكل شيء وحدي.

لم أنبس ببنت شفة بعد عبارته، وروحت أرشقه بنظراتي لدقائق، فذاد ارتباكه، حتى نهضت في تلكؤ وأنا اقول وعيناي في عيناه :

_ أنت تكذب يا عم إبراهيم وعيناك تفضحان ذلك.

و وليته ظهري وقبل أن اغادر البقالة التفتُ إليه، قائلًا :

_ ما أفصحت لك به منذُ لحظات سيظل سرًا بيننا.

أومأ الرجل عدت مرات، بينما أنا أضيف في حِدة :

_ وأعلم إنك المشتبه فيه رقم واحد.

وارتفع حاجبا الرجل في ذهول، لكني لم أعره اهتمامًا وأنا استدير منصرفًا.

☆☆☆☆☆☆

التفكير ألَم بيّ إلىٰ حَد أرهقني نفسيًا وجسديًا، وبتُ أجوب الطرقات دون سبيل يهديني، ولا مكان يأويني، كُنتُ حائر الذهن منشغل العقل كأنما سبحتُ غارقًا في لُجة لا مناص منها ولا فِرار، وأخذت قدمي تسوقني كيفما تشاء، وأنا غائب الفِكر؛ أُفكر فيمَّ حدث وسيحدث.

هل العم (إبراهيم) مُجرمًا؟

سؤال كاد يفتك بعقلي دون هوادة!

الرجل لا يبدو عليهِ قاتل، بل إنه كان يُبكي الصغير كأنه ولده وفلذة كبده، ولكن .. منذُ متىٰ وللمظاهر مصداقية؟

وكم من مظاهر خداعة؟

وقد يجذبنا أريج زهرة فواحة ويكون عطرها سمٌّ يُمزق أشلاءنا.

لم أشعر بالوقت وأنا أسير علىٰ قدماي منذُ فارقت بقالة عم (إبراهيم) حتى حلْ الليل بدجاه الآسر، وقمرُه المنير، ونجومه المضيئة، وهلَّت رياحٌ منعشة فأسبلت جفناي وأنا استنشقها في هدوء، مع زفرة أفرغتْ بها كُل ما يمور بصدري من آهات العجز، وأخذت نفسٌ عميق عساه يبدد ما يموج بأعماقي، وأنا افتح عيناي ناظرًا للأفق، داعيًا الله (عز وجل) أن يُرسل ليّ إيٌّ شُعاع ضوء يسفر عن القاتل، أو أيًّا كان

ثم عُدت أدراجي لمنزلي والهم يُعَّصِف بيّ عَصفًا، وبينما أنا أمر من أمام جاري (أحمد) ألقيت عليه السلام بذهنٌ شارد، فرد عليَّ وهو يقف أمام داره،

وما كدتُ أتخطاه حتىٰ أوقفني سماعي لصوته، يقول :

_ أين صغيرك يا أستاذ حاتم؟! كيف هانَّ عليك تركه هكذا! ألا تخاف علىٰ ولدك يا رجل وأنت ترَ ما يحدث؟

فألتفتُ إليه لأواجهه، وأنا أهز رأسي مغمغمًا بامتنان :

_ لا تقلق يا عم عاطف أنا لا أذره وحيدًا أبدًا، ما أن أخرج حتىٰ أتركه مع (هدىٰ) أنت تعلم كم هي متعلقة به منذُ إن خسرت ابنتها.

و (هدىٰ) كانت تلك المرأة المكلومة التي كانت سبب اتيآني إلى تلك القرية.

فتقدم الرجل واتسعت عيناي علىٰ آخرهما مصعوقة وأنا احدق في قدم عم (أحمد) وهو يحجل بألم، وتذكرت الرجل الذي كنت أعدو خلفه

وقد سقط سقوطًا مدوٍ أثر لا ريب على قدمه التي لم يخف علىٰ عين خبير مثلي مصابها، ولم استمع مما تتفوه به الرجل وأنا أدير بصري علىٰ ملامحه، لأسألن في حذر :

_ ما بها قدمك يا عم هاشم؟ ممَّا تشكو؟

وتلجلج الرجل وزاغ بصره، وتحاشىٰ النظر إليَّ وهو يُردد في توتر لم يُخف عني :

_ لا شيء يا ولدي، مجرد .. حادث بسيط!

فتقدمت إليه وأنا احدجه بنظرة صارمة، وأقول بصوتٍ اجش :

_ لا يبدو ليّ كحادث بسيط يا عم، كيف أصبتها.

تحاشىٰ عم (أحمد) النظر إليَّ، وقال وهو يدير بصره بعيدًا :

_ كنت أساعد عمك (إبراهيم) في بعض البضائع وسقط علىٰ قدمي.

فتساءلت بضحكة متهكمة :

_ تعثرت إذًا؟!

فرمقني الرجل بنظرة دهشة واستغراب من ضحكتي التهكمية التي ندَّت عني، ولم ينبس .. أومأ في هدوء، وانفجرت ضحكة ساخرة في اعماقي.

لا ريب هذان الرجلان يخفيان شيئًا، وشيئًا خطيرًا، وحسمت أمري على معرفته حتمًا، فهذا يكذب وذاك يكذب.

عم (إبراهيم) يقول إنه كان بمفرده، وهذا الرجل يقول إنه كان معه الأمر فيه إنْ، آن الآوان لأعرفه، فاستئذنت منه وغادرته وأنا أومأ برأسي.

☆☆☆☆☆☆

في منتصف الليل، ومع تمام السَّاعة الثانية وربع ودقيقتين، كُنتُ قد اتخذتُ القرار؛ وهو أن أخرج متسللًا إلىٰ بقالة عم (إبراهيم) خفية وتفتيشها، عساي أجد شيئًا

أيُّ شيء يُشعل فتيل حماستي للقادم..

يعطيني أمل إني لا أدور في متاهة لا مناص منها..

أو شُعاع أمل أمسك بدايته وأصل لنهايته..

وقفت أمام البقالة المغلقة وأنا اتلفت حولي في حذر، وسريعًا أخرجت من جيبي أداة رفيعة روحت أعالج بها رتاج الباب حتى أصدر تكة خفيفة معلنة عن فتحة، فدفعته وأنا أزج نفسي للداخل وأغلقته

وراءي سريعًا، وروحت أفتش في كل ركن في البقالة بدقة.

كل ركن..

كل زاوية..

كل دُرج..

كل عُلبة..

لم أذر شيئًا إلا وقد بحثتُ بداخله عن أي شيء اي شيء مهمًا كان..

لكني لم أجد أي شيء يثير ريبتي..

وبيأس خرجت من الدُّكان بعد ما تأكدت إن كل شيء في مكانه.. وسرت نحو منزلي، والذي يقبع بمسافة بعيدة قليلًا عن البقالة تجعلني أمر بمنزل عزيزي (حمص) فحانت مني نظرة إلىٰ منزله، وتابعت طريقي ولكن فجأة .. ومن تحت الأرض

وعلى مد بصري، أخذت رأس سوداء تبرز منها، أعقبها جسدٌ أسود طويل ضخم سد الأفق، فازدردت لعابي وسقط قلبي بين قدمي واجفًا، وحدقت في الشيء فذعًا مرتاعًا، وسرت في جسدي قشعريرة خوف أرعدت روحي، وفي صدمة اتسعت لها عيناي، حتىٰ أظن إنهما تكادان تخرجان من محجريهما من الذهول، روحت اراقب هذا الشيء الأسود وهو يتشكل إلى هيئة عم (إبراهيم) محني الرأس، ورفعها ويا ليته لم يفعل فقد بدت عيناه شدِتا البياض تنزفان الدم ورأسه تكبر..

وتكبر..

وتكبر...

وتيبست قدماي..

وشُلت اطرافي عن الحركة..

وكدت أصرخ مستنجدًا لكن صرختي انحبست في أعمق أعماق قلبي لتعصره عصرًا، وذاد وجيب قلبي وصوته المخيف يتناهي لي في فحيح :

_ أرحل عن هنا وإلا فقدت نفسك وخسرت ابنك، ارحل ولا تعُد ولا تضطرني علىٰ قتلك.

ثُم ضحك ضحكة جنونية مرعبة وأطل من فِيه لسانٌ حالك السواد وهو يمعن النظر فيّ، مسترسلًا :

_ أنت لن ترحل .. أليس كذلك؟ لذا فيجب أن آخذ روحك فأنا لست مستعدًا للمغادرة.

ورأيته يرتفع عن الأرض ويختفي بغتة، وما كدت أتلفت بحثًا عنه يمنى ويسر حتى صدمني في وجهي مباشرةً بوجهه المرعب المميت دون ذرة شفقة، وفي لمح البصر كان يقبض على عنقي معتصرًا إياه بقبضة من فولاذ، ورفعني عاليًا كأني

ورقة بالية لا تُذكر، فحاولت نزع أصابعه ذات المخالب فكانت ككولابة ألتصقت بها فما تتزحزح قيد انملة، وتحركت قدماي في محاولة لدفعة فكانت تضربان الهواء دون أن أمسه، وفجأة تركني وعيناه تنظران لشيءٍ وراءي، وسقط على الأرض كأنما وقعت من شاهق، ولهثت بقوة وأنا اتحسس عنقي وجِلًا، ورفعت عيناي الغارقتان في الدمع للأعلىٰ ورأيته يهز رأسه وعيناه خلفي كأنما يرفض طلب احد، وحاد بصره شطري، وقد أشتعلت بهما نيران حسبتها ستندلع فيّ، ومال عليّ ببطء فزحفت للخلف وقلبي ينتفض خوفًا، وفجأة لم أعلم ما الذي حدث، فقد هوت صاعقة على رأسي وانا انظر إلى فمه الذي اتسع بشراسة، ويداه اللاتين تقتربان أكثر وأكثر ولفني سواد تام، وكان آخر شيء اشعر به هو تراخ

جسدي بالكامل، مع دوار حاد وأغلقت اهدابي على فم المتشكل البشع ولم أشعر بأي شيء.

4 _ القتيل

عندما استعدت وعيي، وجدت نفسي في منزل (عم إبراهيم)، مستلقيًا علىٰ فراشه، وقد أطل وجهه و وجه عم (أحمد) و (حمص) وعم هاشم إحدى جيراننا من علو، وجاب بصري عليهم بعدم إستيعاب، كأنني لم أنزل ارض الواقع بعد..

وما كدت استرجع كل ما حدث معي، حتى انتفضت من الفراش معتدلًا وأنا أحملق في (عم إبراهيم) بنظرات تكاد تخترقه، وتقهقرت للوراء، وقد ارتعد جسدي، وسقط قلبي في نفسي وذادت دقاته في جنون، وأحسست بعيناي تكاد تخرجان من محجريهما من هول الصدمة، وأنا أتمتم وأشير إليه بسبابتي بتلعثم :

_ مـ... ماذا فعلت بيّ يا هذا؟ ماذا تريد مني يا رجل؟! من .. من أنت!

وهجمت عليه جاذبًا إياه من تلابيب ملابسه وأنا أصرخ في وجهه بغضب يتفجر من داخلي ☹ من أنت؟!)

وأطل الوجل في عين الرجل وهو يحاول نزع نفسه، مغمغمًا :

_ اهدأ يا سيد حاتم، أرجوك اهدأ، ما الذي حل بك.

وحاول الرجلان أن يبعداني عنه بكل جهد، وعم احمد يقول متوسلًا :

_ أرجوك يا سيد حاتم أتركه، ودعنا نتحدث، صدقني أنت لست بخير، سأحادث لك طبيبًا ليطمئنا عليك.

فتركت عم إبرهيم واستدرت إلى عم أحمد، سائلًا إياه بتحذير :

_ تظنني مجنونًا؟

وهززت رأسي كأني اجيب حالي، مسترسلًا في الحديث كالأبله :

_ أنت لا تعلم شيئًا، ولم ترى ما رأيت ..

فقاطعني عم أحمد مهدئًا بصوته الرخيم :

_ هدئ من روعك اولًا وكلي آذانٌ صاغية لما تريد أن تخبرني إياه.

فصككت اسناني في غضب، وأردفت وأنا انظر لعم إبراهيم :

_ هذا الرجل ليس كما يبدو ..

فرد عليّ عم إبراهيم في حيرة، وهو يضرب كفٍ بكف :

_ يبدو إن اصابك مسٌّ من الجن يا بُني، فما تقوله ضربًا من الخيال، كيف ابدو بالله عليك، ماذا فعلت لك؟ هل تعرضت لك يومًا!

كلام الرجل بكل تلك الثقة، جعلني أنظر له بإمتعاض ومقت، بينما تابع قائلًا بهدوء :

_ هل هذا جزاء من يفعل خير في هذه الحياة! منذُ سمعت صراخ هاشم مغميًا عليك حتى استيقظت من نومي مفزوعًا وهرعت للأسفل وحدث الشيء مع عمك احمد وحمص وجئنا بك لمنزلي لأنه الأقرب.

ومع كلامه .. كنت احيد النظر إلى عم هاشم.

ودارت الأفكار في رأسي بلى هوادة.

ماذا كان يفعل عم هاشم في وقت متأخر من الليل خارج بيته؟

ولمَ كان مستيقظ من الأساس؟

وسألته بنبرة مشككة، حذرة :

_ هل كنت وحيدًا في الشارع يا عم هاشم، أم كان معي عم إبراهيم؟!

وضرب عم إبراهيم كفيه في حسرة، وهو يهتف غاضبًا :

_ يا إلهي إنه لا يصدقني قط!

بينما اجاب عم هاشم في بساطة :

_ لا، لم يكن هناك احد غيرك، حتى إن الشوارع كانت خالية أيضًا، وعمك إبراهيم جاء علىٰ صوت صراخي باسمك حين وجدتك مغشيًا عليك، لا تتهم احد زورًا يا بني هذا خطأ جثيم لا يقع فيه شخص بشهامتك ورجولتك.

لكنني روحت أحوم حوله في تفحص، واسأله بغموض :

_ ماذا كنت تفعل في الطرقات في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل يا عم هاشم.

ألتفت إليّ عم هاشم، وهو يسأل في غرابة :

_ لمَا أشعر في سؤالك بتهديد مبطن؟ على العموم يا سيد حاتم كنت أذهب إلى الجامع، انت تعلم أن الجامع أنا المسؤال عنه، لذا افتحه قبل صلاة الفجر فأصلي قيام الليل وأجلس فيه حتى تحين.

واسترسل وهو يرمقني بنظرات صارمة :

_ بالمناسبة علاقتي بك تنتهي إلى هنا يا بني، فـ انا لا احادث اشخاصًا يشككون بيّ.

وراح يدير بصره على الرجال ويداعب رأس حمص مغمغمًا :

_ أنا سأغادر حتى يسترد السيد حاتم عقله ويفق لنفسه ولا يتهمنا كذبًا، فهو لا يريد تصديق إلا نفسه.

وانصرف..

بكل بساطة وبرود تحرك خارجًا بعدما تفرس فيَّ بنظرات حادة..

ساد صمت خانق ثقيل بعد أنصراف عم هاشم، وترامقنا فيما بيننا بنظرات حائرة، حتى خارت قواي وجلست منهارًا على طرف الفراش، وقد هاجمني منظر ذاك الشيء وكاد يفتك بيّ ويقتلني، وجهه المخيف، ونظراته، وعيناه التي تشعان نارًا، وفمه الذي بدا قطعة من الدماء أنيابه ومخالبه، وكل شيء به

يا الله لو ينتهي هذا الكابوس.

وتُحل هذه القضية

وينتهي كل شيء

كل شيء..

☆☆☆☆☆

ساعاتٍ من التفكير قضيتها بعدما عُدت لمنزلي، واطمأننت على ابني، الآن أصبح لدي ثلاث متهمين...

العم إبراهيم

والعم أحمد

والعم هاشم

والثلاث دون إستثناء محل شك، وحيرة فأي منهما القاتل؟

كلٌ منهما يخفي أمرًا ما لا يُريد البوح به، يجعله محل شك، تنهدت وأنا أنوي الذهاب إلى (هاشم) في عُقْر داره لأشكره عن إسعافي في الوقت المناسب، وقرب الدار لمحت (حمص) وهو يسير مسرعًا شطر المنزل، لكنه ما أن رآني حتى ابتدرني بوجهه الطَّلْق، وكلمته اللينة، ولسانه المتلعثم :

_ حـ.. حاتم، كيف حالك الآن؟ هل أنت بخير؟

فتبسم ثغري له تلقائيًا، واستلان قلبي، وغمغمت وأنا اربتُ على كتفه في مودة :

_ في خير حال بحمد الله يا حمص.

ثُم أردفت متسائلًا :

_ هل أتيت للعم هاشم؟ هل تريد أو ينقصك شيئًا؟

فهز (حمص) رأسه بالنفي، وهو يجيب في تلكؤ :

_ لا، لا أريد شيئًا، أتيت لأخبر العم هاشم ألا يحمل ضغينة منك.

هممتُ أن أجيبه، عندما، فُتحَ الباب مصحوبًا بصوت العم هاشم وهو يقول في عصبية :

_ لمَ تأخرت يا فتى، لا نريد أن نضيع وقتًا ..

وبتر عبارته حين وقع بصره عليّ، وقد شحب وجهه وتوتر، وزاغت مقلتاه وهو يُردد في إرتباك :

_ أستاذ حاتم أنت هنا! تفضل تعال ادخل.

وأفسح ليّ الطريق وهو يدفع الباب، ويرمق (حمص) كالغريق، لكن (حمص) بدا على طبيعته ولم يبدِ أي اهتمامًا به..

ولا بتوتره..

وارتباكه..

وذادت الحيرة والتساؤل في نفسي، وراحت تمور بداخلي بلى هوادة.

لِمَ ارتبك (هاشم) عندما رآني؟

لماذا كذبَ عليّ حمص إنه جاء إليه ليصلح بيننا وقد بدا ليّ عكس ذلك؟!

ما الذي يخبئانه عني؟

ونفضت هذه الأفكار عن رأسي وأنا اندمج في الحديث معهما.

بدت هذه القضية غريبة ومخيفة في آن، وعصية الحل فمن الصعب أن يواجه المرء قاتلًا لا يرآه بعينه، ولا يدري عنه شيئًا.

أهو بشر أم جن؟

او شيءٍ آخر لا أدركه؟!

فإنني وُعَاءٌ يحمل في داخله كل ما يُعرف عن القتلة والجرائم بسبب جُمّ القضاية التي خُضتها، وهذه لا تبدو في مثلهم قط، هذه أول مرة اواجه خطرًا حقيقي لإن القاتل شخصٌ لا يُرى بالعين.

عندما عُدت من زيارتي للعم (هاشم) وجدت عم (إبراهيم) في إنتظاري، كان يقف مرتبكٍ أمام الباب، يدير بصره في المكان في توتر، وما أن وقعت عيناه عليّ حتى لمعت عيناه وانفجَّرت اساريره وهو يقول في لهفة تفعمت في ملامحه :

_ حاتم يا بُني، أريدك في شيءٍ هام جدًا، لا يُنتظر ولا يؤجل!

وفي داخلي أدركت إن الرجل سيبوح بسرٍ ما، سيكون فيه نهاية هذه القضية المعقدة، فاومأت

برأسي وأنا افتح الباب مسرعًا واستدعيه للدخول، مغمغمًا في ترحاب :

_ تفضل يا عم إبراهيم سأصغي لك كما تريد، تعال.

وجلسنا أنا وهو على مقعدين متقابلين، وبدا التردد في مقلتاي الرجل لثوانٍ، قبل أن يسأل بشحوب :

_ ألا يوجد أحد هنا غيرك؟

فأجبته في صبرٍ :

_ لا اطمئن لا أحد غيرنا، ابني مع السيدة هدى لتهتم به.

فاذرد لعابه، وتصبب عرقًا، وهو يردف :

_ما سأقوله لك الآن سيظل بيننا حتى تنتهى من الجاني ..

ولوح بسبابته في وجهي وهو يقول منذرًا :

_إن علم أحد بما سيدور بيننا الآن ستكون نهايتي ونهايتك.

_لا تقلق لن أخبر أحدًا، أعِدك بذلك، فثق بيّ.

غط العم (إبراهيم) وجهه بين كفيه، وهو يردد :

_ يجب أن تصدق كل حرفٍ سأتفوه به مهما كانت غرابته.

فملت للأمام وأنا أشبك يدايّ أمام وجهي، قائلًا :

_ كلي آذانٌ صاغية يا عم إبراهيم، قُل ما تشاء ولا تخف.

نظر الرجل في الفراغ، وقال بعد هُنيهة :

_ اسمع يا بُني، من يقتل أطفالنا ليس أحد منا، ليس ببشر من الأساس ...

قاطعته بصدمة :

_ ليس ببشر؟

لا أدري لما صُدمت بما قال رغم يقيني إنه كذلك، رُبما لأن الحقيقة كانت قاسية؟ أو لإني لم اعتد ذلك؟

وبادرته متسائلًا في حيرة :

_ جن! هل الجن هو من ...

هز الرجل رأسه بالنفي، وهو يقاطعني في صرامة :

_ جن! جن ماذا؟ لا بالطبع الأمر ليس كذلك.

فتساءلت مندهشًا :

_ إذن ماذا؟ ليس جن ولا بشر .. فمن؟

تنهد الرجل وأخذ نفسٌ عميق وهو يسطرد :

_ لا تقاطعني أرجوك يا سيد حاتم، دعني أنهي ما في جعبتي قبل فوات الأوان، من تبحث عنه هو ..

قاطع استرسال عم (إبرهيم) صوت (حمص) وهو يغمغم :

_حاتم، هل أنت هنا.

فحملق الرجل في ذُعر، وانتفض مرتجفًا واجف القلب، وقُلت وأنا امعن فيه النظر :

_ تعال يا حمص.

ودعيته للجلوس وأنا اتابع :

_ أبق حتىٰ أنهي حديثي مع عمك إبراهيم، وأحضر لك الطعام.

وألتفتُ إلىٰ العم (إبراهيم) مبتغيًا آخذُه لإحدى الغُرف لنواصل حديثنا، لكن هالني منظر الرجل وهو شاخص البصر على الحائط وراءي في ارتياع، فأستدرت لما يحدق ولم أجد اي شيء يثيرُ الريبة، وهممتُ أن اسأله عمَّا به، حتىٰ كان يهرول

خارج المنزل كأن الشياطين تلاحقه، فركضت وراءه وأنا أنادي عليه ليقف لكنه لم يستجب، وسمعت صوت حمص يسأل في خوف :

_ ما به العم إبراهيم؟ لماذا ذهب خائفًا هكذا؟

وهززت منكباي في حيرة، وأنا أقول علىٰ عجلة :

_ سأذهب لأرى ما به لا تغادر سأعود في الحال.

ولم انتظر رد وخرجت مسرعًا إلىٰ منزل العم إبراهيم الذي كان مفتوحًا على مصرعيه فدخلته بعد ما ناديته ولم أتلق ردًا، وصُعقت مكاني، وتقهقرت للخلف مصدومًا وأنا أحملق في جثة العم إبراهيم الملقي أرضًا ممتقع الوجه، جاحظ العينين، وقد استقرَّت في قلبه مدية حادة، وظهرت بعد العلامات الزرقاء الواضحة علىٰ عنقه.

5 _ الحقيقة

المؤلم في هذه الحياة، إنَّ الإنسان لا يدري متى يموت ..

متى ينتهى أجله..

وتتوقف دقات قلبه..

متى يسرقه ملك الموت في خطفة عين..

ويصبح في لحظة من الأموات ..

يواريه الثرى

ويحتضنه القبر

وترافقه الظلمة

والحياة مستمرة، والناس تعود للعمل الدؤوب لتحيا، لكن ذاك الراحل يترك بنا أثرٌ حتمًا

أثرٌ يظل في سويداء القلب يذكرنا به حتى نلحقه..

يا أسفا علىٰ من يأخذه الموت غدرًا.

موت العم (إبراهيم) كان صدمة حقيقية ليّ، فقد كان الرجل أمام عيني مذ ثوانٍ قليلة تُعد علىٰ أصابع اليدين، كيف في لحظة يغادر الدُّنيا هكذا!!

وكيف ذاك الشيء القاتل عَلِم بإنه كاد يفصح ليّ بما يعرفه، فقضىٰ عليه قبل أن يفعل!

يا إلهِ لماذا تتعقد الامور مرة أخرىٰ؟

ألم يأن وقت انكشاف كل شيء؟

ألن ينجلي هذا الأمر!

ربتُ علىٰ منكب (حمص) الذي كانت تَرْتَعِد فَرَائِصُهُ، وهو يجلس منتفض الجسد، هلِعًا جزعًا،

وقد بلغ منه الإعياء مبلغًا عسيرٌ، وراحت عيناي تراقبان رجال البحث الجنائي وهم ينقلون جسد العم (إبراهيم) إلىٰ سيارة الإسعاف، التي تقف خارجًا، ودار بصري علىٰ البقية الذين أخذوا يرفعون البصمات بكل دقة، كان الرجل وحيدًا بعد وفاة زوجته، ولم يكن يملك أولادًا إلا ابنة وحيدة لا تسكن معه بحكم عملها كـ مُدرسة في إحدىٰ المدارس الابتدائية.

(مات؟ لقد مات أبي .. هل رحل حقًا! كيف يتركني هكذا دون وداع

دون عِناقٌ أخير..

ألن آراه مرة أخرى؟ هل فقدتُ الوطن الذي كان يُحيي قلبي وتتنفس روحي فيه.)

انبعثت هذه العِبارة بغتةً بصوت أنثوى ناعم، رقيق مفعمًا بالشجون، فالتفتُ مصدر الصوت، ورأيت

فتاة مليحة الوجه، تبكي بنحيب، فعلمت إنها ابنت (إبراهيم)، وتأملتها بأسى، وصوت بُكاؤها يُدمي قلبي، فضمت صورة والدها إلىٰ صدرها، وتسلل صوتها الحزين، الجميل إلىٰ أُذني هامسًا بنحيب يمزق القلب :

_ لقد خسرتك أيها العزيز ولن آراك مجددًا ليتني مت قبل هذا ففراقك قصم ظهري، وحنى نفسي، وشيب شعري، من ليّ غيرك بعد الآن؟

بعض النَّاس حياة إن غابوا غابت معهم نفُوسنا..

بعضهم دقة القلب التي إن فقدنها فقدنا معها أرواحنا..

ترقرقت دمعة في مقلتين العم (هاشم) بينما كان العم أحمد جامد الملامح وهو يربت علىٰ كتفها في مواساة، قائلًا بصوت يقطر منه الحزن :

_هوني علىٰ قلبك يا ابنتي، والدك في مكانٍ أفضل، اصبري وثابري.

ذرفت آماقي الفتاة، وهي تهمس بحزنٍ دفين :

_ نوائب الدهر دائماً ما تكون غادرة تختطف منا الإعزاء دون نذير.

عنذئذ نطق العم هاشم، قائلًا بلوعة وقد أسبلتا عيناه :

_ إن الله (عز وجل) رحيم يا ابنتي، سيلهم قلبك الصبر على غياب عزيزك، ستُحل السكينة قلبك، وستداوى جِراحك.

ران السكون بعد عبارة العم (هاشم)، ولم تلبث الفتاة إن قالت بأسىٰ :

_ وهل تبرأ الجِراح يا عم هاشم؟ لقد أعياني رحيله، وما أعياني شيء من قبل كما أعياني فراقه.

ثم أتبعت في خفوت:

_احمدك يا الله حمدًا كثيرًا، لا أبكي سخطًا ولكن الفراق قاتل.

وأرتجُ عليها فلم تنبس ببنت شفة، وإن تراءى الدمع في أجفانها يترقرق.

مرت أيام العزاء بكل وجد الدّنيا، كان جميع أهل القرية مكدوديين حُزناء، على موت (إبراهيم) ولم ألتقي بابنته مرة أخرى، ولم يحدث أيٌّ شديد، لكنني كُنتُ أُتابع إجراءات الطبيب الشرعي أول بأول.

وذات أمس طُرق الباب فتوجهت لفتحه فأطل من وراءه وجه (ياسمين) ابنت إبراهيم، فطالعتُها بحيرة وبادرتُها قائلًا قبل أن تهم بالحديث :

_ ياسمين، لِمَا أنتِ هُنا هل تُريدين شيئًا.

فتحيَّر بصرها، وفركت أناملها في توتر، ورغم ترددها الظاهر، قالت برأسٍ مرفوع وصوتٌ خفيض حازم :

_ أريدك في أمرٍ هام يا سيادة العقيد.

ارتفع حاجبي من الدهشة، ولم أعلق فعلىٰ ما يبدو إن والدها قد أخبرها بكل شيءٍ عني، ولا تثريب عليه الآن، فقط غدا كل ما أُريدُه أن أكون في منأي عن هذه القرية، وتنتهي هذه القضية.

فسألتها :

_ أين تريدين أن نتحدث؟

أجابتني في بساطة :

_ تعال نتمش عند البحر وأخبرك بما اريد.

أومأت لها برأسي، واستطردت قائلًا :

_ حسنٌ، أمهليني دقيقة فقط حتىٰ ابعث ولدي إلىٰ السيدة هُدى.

وفي دقائق قلائل كُنت أمضي بابني إلىٰ السيدة هُدى التىٰ تهللت أساريرها وهي تتلقفه في أحضانها، وأوسعت وجهه لثمًا وأخبرتني إنها ستهتم به، وسيرنا أنا وياسمين بجانب البحر الراكد صامتين، كُنت أبغي في نفسي أن تبادر هي في الحديث، ولم يطل تخاطري إذ وجدتّها تلتفت إليّ بوجهها القسيم، وتقول :

_أُريد أن انهي ما بدأهُ أبي؟

توقفت متعجبًا من قولِها، وقُلتُ وأنا أقف قبالتها :

_ وما الذي بدأهُ أبيكِ ولم يُنهيه!!

استدمعت عينيها وهي تسبلهما موارية عبراتها عني، وقالت بألم :

_ موت أبي لم يُفجأني فقد كُنا نتوقع ذلك في أي وقت!

راعني قولها، وأردفت هي تقول بتنهيدت ألم :

_ أبي كان دقة القلب التي فقدتُها، وغيب رحيلهُ قلبي.

ثُم أطرقت برأسها وهي تكفكف دمعها الذي يهوى هويًا، وعبس وجهها حينما تسآءلت وأنا أعقد ساعدي أمام صدري :

_ من الذي قتل والدك؟ هل هو العم هاشم؟ صراحةً أنا أشكُ به.

عدنا للسير جنبًا لجنب والصمت رفيقنا الثالث، وهَلَّت ريحُ الحَنون، وأطلت بعضُ السُّحب من السَّماء، تحجبُ عنا القَّمر، وأطال سيرنا دون أن يتفوه أحدٍ منا بحرف، لم اقو علىٰ الحديث فأيُّ كلام يواسي القلب المكلوم؟

ويمحو بُكاء الروح!

ويطيب النفس من أوجاعها!

وتُنسي فُراق عزيز!

فتركتُها تستجمع أطراف شجاعتها، حتىٰ تنحنحت ببسمة خِجلة، وغاضت مدامعها، فرمقتُها وفي عيني نداءً لها كي تفصح بِمَّا تعرِف.

قالت في صوتٍ خفيض :

_ الجاني شخصٌ لم يخطر على بالك قط، أحدٌ دائم التواجد حولك، وبراءته كانت سلاحه ليواري صنيعُه...

قاطعتها قائلًا في دهشة :

_ أليس العم هاشم؟

زفرة (ياسمين) في هدوء، وهي تردف :

_ لا ريب إن هاشم ذاك متورط، لكن الخطر ليس منه، الخطر في ذاك المتشكل ...

عُدت اقطع حديثها، قائلًا في ذهول :

_ المتشكل! ومن هذا؟

ثم أردفت اقول محادثًا نفسي:

_ منذُ إن جعلت هذه القضية نُصب عيني وهي تتعقد كل يوم عن سابقه.

هزت (ياسمين) كتفيها، وهي تقول :

_ ربما لإن هذه القضية بالذات لا يقوم بها شخصٍ عادي.. أخبرني بما أخبرك أبي بالضبط حتى نبدأ، ما الذي تعرفه للآن؟

التفتُ إليها قائلًا :

_ والدك لم يخبرني بشيء، فقد جاء حمص ...

ولم يكد الأسم يستوعبه عقلي حتىٰ تفجرت في نفسي فكرة واحدة.

هل حمص وراء كل هذا؟

كيف لم اشك به من قبل؟

لقد كان متواجدًا في كل حادث حدث!

لكن كيف؟

وصمت لحظة، عقدت خلالهما حاجبي، واستدركت قائلًا في شحوب ونبرة متلعثمة :

_ حمص، أهو وراء كل شيء؟

أجابتني وهي تهز رأسها :

_ يؤسفني أن أقول نعم ذاك الشاب هو خلف كل ما حدث وسيحدث.

وقصت عليَّ القصة بكل حذافيرها، وعلِمت إن والد حمص كان (عالِم) يقوم بإحدى المشاريع، التي نتج عنها (المتشكل).

حاول والد حمص قتل هذا الشيء ولم يفلح لأنه لقى حتفه، كان يدرك في قرارة نفسه إنه فعل شيءٍ شنيع، وسقط في يده أمام تلك الجائحة، كان الذي يعلم بأمر المتشكل حينذاك فقط العم هاشم و والدت حمص وابنه فقط، وعندما قتل المتشكل الرجل هو وامرأته، وهو يحاول التخلص منه، نجح حمص في ردعه وجعله صاغرًا له بالعلم الذي أخذه عن والده، وجاء حمص ليسكن بمفرده مع المتشكل في قرية والده وبجانب العم هاشم، كان غذاء المتشكل من دماء الأطفال كل شهر، وهذا ما يُعلل ذبح كل طفل شهريًا، وحمص لم يتزعزع لكل هذا..

على العكس كان راضيًا..

وكان ينتظر إن يقوم بمشروع آخر لنتج متشكل ثانٍ ..

أقل دموية مما معه ثُم يُنهيه...

ويصل هو للعالمية بمشروعه..

لقد انخدعت في براءته الزائفة، وبعد ما انتهت (ياسمين) من روي ما لديها، خيم علينا صمتٌ كئيب، واشتهيت في نفسي أن أرى حمص وآخذ روحه بيديّ، قضقضت أسناني وانا أتميز غيظًا، وسمعت (ياسمين) تقول :

_ الموضوع محيَّر جدًا وأمامنا مشوار طويل يا سيد حاتم، يجب أن احذرك هذا المتشكل يستطيع التشكل في اي شيء وكل شيء لذا قد أطلقنا عليه اسم المتشكل، لذلك فاحذر.

لم أعير قولها ذاك اهتمامًا، وأنا اغمغم في غضبٍ :

_ سأشرب من دم حمص ذاك ...

قاطعتني (ياسمين) صارخة :

_ صه .. صه بما تتفوه أنت؟ لن تفعل شيئًا، لن نقوم بأي شيء حتى نخطط له جيدًا، ونعلم كيف نقضي على هذا المتشكل.

فهتفت فيها :

_ لن أجلس دون فعل شيء، سألقي القبض علىٰ حمص في الحال.

عقدت ياسمين ذراعيها، وهي تسألني في برود :

_ وما هي تهمته، وما دليلك؟ نحنُ مهمتنا قبل حمص هو ذلك المتشكل فسجن حمص لن يجدي نفعًا سواء نعتك بالجنون من قِبل من سيسمعون قصتك، ستكون على سجيتك امام الكل، ستتعامل كأنك لم تعلم شيء بعد.

صمتُ لُهنيهة أُفكِر، وغمامةً سكون لفتنا، لم يقطعها إلا صوت حمص يأتي من وراءنا :

_ حـ.. حاتم أنت هنا، أنا ابحث عنك!

وترامقنا أنا و (ياسمين) في حذر، وفي داخلنا تصاعد سؤال دون إجابة:هل سمع من حديثنا شيء..

هل؟

6_ إختفاء

(ما يهدي الحياة قد يعطي الموت أيضًا إذ زاد عن حده أو أُعطيَّ بطريقة خاطِئة)

نطق تلك العبارة ابني الصغير (لؤي)، ونحنُ جالسان نتابع التلفزيون، فتحيَّر بصري ودُهش مِمَّا قال، و وثبت من مكاني لأجذبُهُ إليّ وجثوت أمامه، وسألته في لهفة، يصاحبُها الشغف، وأنا أمسك بمنكبيه :

_ ما الذي قُلته للتو يا بُني؟ أعد عليَّ ما تفوهتَ به.

فبدا زائغ العينين كحالتهُ دومًا، وراح يهز في جسدهُ، وهو يقول مخاطبًا نفسه كما بدا ليّ وليس أنا :

_ الدواء يكون دواء إن أخذ منه المريض حبة لكن يكون سمًا قاتلًا إن تناول الحُبيبات كلها، هكذا هي الأشياء كما تُحيي تُميت.

فضممتهُ لصدري في امتنان شغوف، وقد عرفت كيف أنتهي من هذا (المتشكل) طوال الأيام الفائتة والتي قد مرت مرور السحاب لم ألتقي بـ (ياسمين) بعد آخر لقاء لنا والذي انتهى بقدوم (حمص) حينذاك كنا قد خشينا إن يكون قد وصل إليه حديثنا لكنه بدا طبيعيًا، هادئًا، فاستجمعت سجيتي وأنا اتعامل معه كمعاملتي السابقة رغم كل ما يمور في صدري من كُره.

توالت بعد ذلك لقاءتي مع العم (أحمد) وكنا نتناقشان فيمَّا يمكن فعله لكنها لم تجدي شيئًا.

حتىٰ تحدث ابني بما قال، و وصلت للحل الأمثل وسأرجو الله أن يفلح وإلا لضعنا جميعًا.

وهرعت إلىٰ منزل العم (أحمد) علىٰ الفور مع ابني، بعد ما اجريت مكالمة مهمة مع صديقٍ ليّ.

وما كاد الرجل يفتح الباب ويستقبلني حتى بادرته في إنفعال :

_ لقد وجدتُ الطريقة.

فسأل الرجل في حيرة:

_ أيُّ طريقة .. ما الذي تنويه؟ لا أفهمك.

فهتفت في نبرة لا تزل منفعلة :

_ طريقة إنهاء المتشكل ...

وقبل أن أتم عبارتي، قاطعني الرجل وهو يقول في سرور :

_ أحقًا ما تقول...أخيرًا سننتهي منه .. ولكن كيف؟

وربت علىٰ كتفي وهو يدعونني للدخول، مضيفًا :

_ تعال لنتحدث بالداخل.

(ياسمين)

الحياة بدت خاوية، وقلبي فارغًا، كئيبًا حزينًا، أترعته الأوجاع، وملأته الندوب، وفاضت فيه الأحزان فيضًا، وأحرقتني دموعه حرقًا، فغياب أبي لم يكن هين..

غياب أيُّ أب عسير.. فجيعة تزل عالقة بين ثنايا القلب

أفتظن بعد ذلك إن قلبٌ استحال رمادًا قد يحيا؟

وقد ذهب دون وداع من كان يرممُه!

عندما جاءني نبأ قتله، حينذاك كنت في (المدرسة) التي أُدرس فيها، وإنصرفت منها ومآقيَّ عيني لا يرقأ لهما دمع، كانت اول مرة اسيرُ في الطرقات

على غير هدىٰ، والأدهىٰ إني لم أستطع كبح دموعي التي شوشت عيني، كان موقف لن يبرح مخيلتي قط، و وجعٌ لم أحياهُ قبلًا، وبكى قلبي بكاءً لم يبكيه يومًا.

ويا ليت بُكاء القلوب يُدرك!

فهو بكاء مميت يمزق الروح ويدميها..

ويقرح شغاف الفؤاد وعندها فقط أدركت إن بكاء القلب برغم إنه لا يُسمع ولا يُرى، لكنه يصم أذان الباكي، ويوجعه وجعًا قاسيًا.

فلملمت شتات نفسي، ونهضت من سُباتِ، كان عليَّ أن أكمل ما بدأه فقد كان كل ما يرجوه.

نعم قد أبعدني أبي عن القرية خوفًا عليَّ لكني الآن لا أملك من يهتم بيّ.

وحين عودتي للقرية، تجدد بداخلي أمل الحياة، وانبعث في نفسي نبراسًا ينيرُ عتمتي.

لا أعلم هل حقًا بتُّ مُعجبة بالسيد (حاتم) أمَّا إني اتوهم لا يهُم الآن حقيقة مشاعري، فكل ما يشغُل ذهنِ هو التخلص مِمن يُقلق كل قلوب القرية، ويسلب اطفالنا، وقد كان كل طفلٍ له علينا حق.

إلا يكفي بِإنَّ الأطفال أحباب الله؟

انتزعني من شرودي قرعٌ علىٰ الباب، فأجفلني لثوانٍ قبل أن أهرول في لهفة لأفتحه، لما خفق قلبي؟

ونبأتني خفقاته الهادرة إن (حاتم) هو الطارق..

حسنٌ ها أنا ذا أفتح الباب، ولم يخب قلبي، فقد كان هو برفقة والده الصغير الذي تعلق بهِ قلبي، والعم (أحمد) رفيق أبي الوحيد.

والصديق..هو أخٌ ولِدَ من رحم الحياة فكان اكثر من شقيق

كان بلسم للفؤاد من الندوب..

كان رفيق الروح

وأنيس الوحدة..

ونور العين

وضياء القلب

وفرحة الحزن، وبسمت الأمل

هذا بإختصار هو وصف الصديق الحقيقي.

تبسم (حاتم) شبه ابتسامة، وبدا ليّ مرتاحًا سعيدًا، ورمقتهما بنظرة تساؤل، أجابني عليها العم (أحمد) قائلًا في لهفة :

_ لقد علمنا كيف سنتخلص منه.

فأسرعت أرد عليه بغير تصديق :

_ حقًا! وكيف؟

رد عليّ (حاتم) مغمغمًا في هدوء :

_ستعلمين كيف في الوقت المناسب، ولكن الآن استبقي (لؤي) عندك، إذ لم يكن يثير ضيقك ذلك..فالسيدة هُدىٰ لم أجدها.

فهتفت في لهفة وأنا أمسك كف الصغير في راحتي :

_ يضايقني! بالطبع لا، هذا شيء يسُّرني للغاية.

واستطردت وأنا أرفع نظري إليه :

_ولكن ألم تخبرني بما توصلت؟

قال في هدوء وهو يكاد يُغادر:

_ سيخبرك العم أحمد بكل شيء، الآن يجب أن أذهب.

وذهب على عجلة آثارت دهشتي، ودلفنا للداخل

وانا اسئل العم (أحمد) في فضول:

_أنَّىٰ هو ذاهب، وما الذي ينويه.

فتنهد تنهيدة عميقة، وقال وهو يجلس :

_ لقد ذهب للقاء صديق ليحضر الدم.. وربما يغيب لغدًا.

فتساءلت وحيرتي تتصاعد بقلق ملأ نفسي :

_ دم!؟ أي دم سيحضره!

فرد عليَّ العم (أحمد) ببسمة :

_ الدم الذي سنتخلص به على المتشكل.

اتسعت عيناي في جَزع، وهتفت :

_ أيُّ دم هذا الذي سيقتله؟ إن الدم يذيده قوة وشراسة وشهية للدماء، هل يهذي حاتم الآن؟

فأشار ليّ العم (أحمد) بالجلوس، وهو يقول في هدوء :

_ ألم يخطر ببالك يا ابنتي لماذا لا يُقرب المتشكل من دماء الكبار؟!

فهززت كتفي في حيرة، ورددت :

_ لا، لا أعلم ولم افكر بذلك قط، هل تدري أنت لما؟

فمال العم (أحمد) إلىٰ الأمام، وهو يقول :

_ربما يا ابنتي لإنه خطرٌ عليه!

سألته في توتر:

_وما الذي يُدريك؟

تراجع العم (أحمد) في مقعده، واسترخ مسبلًا جفناه، ويقول في هدوء :

_ صراحةً يا ابنتي نحنُ ليس متأكدين من نجاح الخطة التي وضعها حاتم، وإن كان الدم الذي سيجلبه سيأتي بنتيجة أو لا لكننا سنُخاطر.

صحت وأنا أهب واقفة من هول الصدمة :

_ هُراء، لن تُخاطِرا بحياتكما، لن أسمح لكما.

وانهمرت الدموع من عيني، وأنا أهمس بصوتٍ خفيض يحمل كل حزني:

_أنت من تبقَّ ليّ يا عم احمد بعد أبي، هل ستتركني؟

وتجمعت العبرات في عينيه وهو يهمس بدوره :

_وإن تركتك يا ابنتي فإن الله باق.

ضممت كفه بين راحتيَّ وهمستُ في توسل :

_ أرجوك يا عم أحمد، لا تفعل لن استحمل فراقك أيضًا.

فرد وهو يربت على رأسي في حنان ابوي :

_ لا تخشي شيئًا نحنُ سنحاول، وإن ذهبت أرواحنا فداءً للأطفال فهم يستحقون يا ابنتي.

فجلست منهارة على المقعد وأنا ادفن وجهي بين كفاي، و وجدت (لؤي) يدفع رأسي، وما ان رفعتها له حتى اسند مرفقيه إلىٰ ركبتيّ ودس فيهما رأسه...

كانت هذه طريقته في التعبير عن الخوف من شيء، والحزن.

صوبت بصري للعم (أحمد) بحزنٍ دفين يملأُ صدري، ورددت في هدوء، رغم انسكاب الدمع من عيناي:

_ما تنويان القيام به قد يودي بحياتكما إذ لم يفلح، فلما نخاطر! لماذا لا ننتظر ونخطط جيدًا؟

زفر العم (أحمد) في ضيق، قائلًا:

_يا ابنتي إذ لم نحاول فما فائدة تخطيطنا؟ كيف سننهيه إذ كُنَّا سنجلس عاقدي الإيدي! لا ضير من المحاولة، ماذا سنخسر اكثر مما خسرنا؟

فكفكفت دمعي وروحت اربت على رأس الصغير في حنو، وانبعث صوتي في صرامة كأنما يأتي من مكانٍ سحيق في داخلي :

_ معك حق يا عم أحمد لا ضير من المحاولة، يجب أن نجرب حظنا أما أن يفلح او نموت جميعًا.

فرد العم (أحمد) عليَّ في عصبية تطل من عينيه:

_ لست جميعنا، أنا وحاتم فقط من سيحاول، أنتِ ستهتمين بالصغير.

لم أناقشه مجددًا، ربما لإنها لن تجدي نفعًا، فهززت رأسي باستسلام، وأنا أغمغم:

_وما هي خططكما؟

اجابني وهو زائغ العينين، وجل القلب:

_ الحقيقة أن حاتم هو من سيكون في وجه الخطر وحده مع صديقٌ له في المباحث الجنائية، أنا فقط سأحاول إخراج حمص من منزله وتشتيته، وهما سيدخلان المنزل وينهيا المتشكل.

ازدرت لعابي قلقًا، وتمتمت في هدوء :

_ لعله خير بإذن الله (سبحانه وتعالى).

ران علينا الصمت والسكون بعد ذلك، ولم ينبس أيٌّ منا وفجأة أحسست بشيء يرتطم علىٰ وجهي، فتحسسته بسبابتي التي امتلأت دمًا، فهالني ذلك، وارتاع العم (أحمد) وفي ثانية كنا نرفع رأسينا لأعلىٰ، ليُطالعنا ابشع وجه ممكن أن نرياه في

حياتنا كلها، وجهًا أسود مخيف، بعينين حمراوين كأنما هما قطعتين من الدم، مع فمٌ غليظ ذا أنياب بلون الدم أيضًا، فشهقت في ذعر، وامتقعَ وجهي، ونهضت وأنا احمل (لؤي) الذي ارتجفت فرائصة، وتراجعت في رعبٍ وذهول، حتى التقصت في العم أحمد، الذي اطل خوفٍ هائل في عينيه، وشحب وجهه، وهو فاغرٍ فاه، وردد في تلعثم:

_ أهذا هو .. الـ المتشكل؟

وفي طرفة عين كان يتجلىٰ المتشكل أمام أعيننا، فصرخت من الرعب الذي احتل كل خلية في جسدي، وخُيل إليّ إن قلبي قد توقف نبضه، وشُل جُل جسدي عن الحركة، إلا روحي الواجفة التي كانت ترتجف في رعدة مخيفة، استجمع العم (أحمد) كل شجاعته، وشحذ همته وهو يتحرك ليوارى جسدي أنا والصغير وراءه، ويهتف فيّ :

_غادري يا ياسمين بأسرع ما يمكنك، اهربي بكل ما تملكين من قوة، هيا.

وقبل أن أتحرك خطوة واحدة، كانت يد المتشكل تطرح جسد العم (أحمد) أرضًا، فصحت بإسمه وهممت إليه، لولا إن تحرك المتشكل واقفًا أمامي، واتسع فمه المخيف وهو يدنو إليّ، فبكيت في انهيار، وتخبطت ساقيّ من فرط الرعب، وقبل أن يقترب المتشكل مني، كان العم (أحمد) يصدم رأسه بإحدىٰ المقاعد، فأستدار إليه وزمجر في غضبٍ ورفع يده ليضربه بكل قوة، فطار جسد العم (أحمد) في الهواء قبل أن يرتطم في الجدِار ويسقط مغشيًا عليه.

وتراجعت في ذعر واستدرت راكضة والصغير بين ذراعيَّ، واختبئت في غرفة نومي وأوصدتها

في إحكام، وروحت أُراقب الباب المغلق بجسدٍ مرتعش، وأعيُن تَذْرِفان، كنت قد انزلت الصغير وأنا أغلِق الباب، فعدت لأجذبه وضممته إليّ بكل قوة، كأنما أستمد منه الشجاعة، وتراجعت للوراء وعينايّ ترصدان الباب، وتوقفت عندما اصطدم جسدي بخزنة الملابس، فسكنت وروحت أنزلق علىٰ الأرض وتكورت علىٰ نفسي، ورددت بصوت ينتحب:

_مات..مات العم أحمد امام عيني، لقد قتله.

وروحت أهذي في انهيار يفطر القلب، ويدمي الصمُّ الصّلاب، وبغتةً..وبينما أنا أراقب الباب إذ أحسست بعينين ترقباني، فسقط قلبي بين قدمي، وتوقف نبض قلبي، وكتمت أنفاسي المتلاحقة، وأنا ألتفت يميني، وتحركت الخزنة التي أطل فيها وجه المتشكل وفي ثوانٍ كانت تختفي هي والصغير...

المتشكل (7)

عُدتُ بعد ساعاتٍ قلائل من لقاءي بصديقٍ ليّ، ويممت وجهي شطر منزل (ياسمين) مباشرة؛ ربما لإن ابني لديها!

أو لإنني أحببت رؤيتها!

أو لذاك الهاجس الذي خامر نفسي!

وطرقتُ علىٰ الباب بضع مراتٍ دون أن أتلقَّ ردًا، فذاد القلق في داخلي، وسرت قشعريرة باردة في جسدي نبأتني إن شيءٌ ليس بيسيرٍ قد حدث، وفي هلعٍ روحت أخبط الباب الخشبي بكتفي حتى فُتحَ، وهرولت للداخل لِأجد العم (أحمد) مُلقي بجوار الحائط فاقد الوعي، فهرعت إليه بقلبٍ واجف ينبض

بالخوف على وحيدي، وأعدلت رأسه التي كانت تستقر على الأرض وهتفت بإسمه في جذع بعد ما تأكدت إنه لا يزل يتنفس، وعندما ندَّت منه حركة ، وفتح عينيه المحمرتين، وهو يهمس في إعياء :

_ ياسمين، ياسمين ... لؤي.

فعاجلته في لهفة :

_ عم أحمد، أنت بخير..ما الذي حدث؟ أين لؤي وياسمين؟

فزاغت عينيه لثوانٍ لم تلبث إن أطل منهما رُعبٍ هائل، واستوى بذعر، صارخًا :

_ المُتَشكِل لقد ... لقد أخذهُما، لا ريب إنه علم بما ننويه...

واسترسلَ في ألم حائر:

_أيمكن إنه قتلهما؟

ضاقت الدُّنيا في عيني وطارَ صوابي، وانفلق كبدي على وحيدي.

وتساءلت في غضبٍ وقلبٌ منفطر :

_ أين ذهب بهما يا عم (أحمد) هل لك أن تعرف؟

سَحَّ دمع عين العم (أحمد) مع همسه الخفيض :

_ لا أعلم يا بني، لقد فقدتُ وعيي بسبب ذلك الحقير.

أجهشت في البكاء، وصككت أسناني وأنا استشيط غضبًا، واعتصرت قبضة باردة قلبي.

لؤي، الشيء الوحيد المتبق ليّ في هذه الحياة ربما قد غادر الدنيا الآن.

عزيز قلبي يحيا الرعب بمفرده وكله بسببي.

يا ويح قلبي إن غادره بتلك الطريقة!

نهضت وقد برقت عينيَّ بتصميم مخيف بالقضاء على كل من له يد في ذلك، ولم ألقي بالًا لنداءات العم (أحمد) الوجلة، وذهبت لمنزل (حمص) ودفعت الباب بقدمي ففُتح وانطلقت للداخل وأنا أتفرس في كل شبر من المنزل، فكان المنزل خاليًا، وأصابني اليأس، ولمحت يدًا قُرب باب إحدىٰ الغرف، فاندفعت بداخلها، لأجد (حمص) مرمي على الأرض فجست نبضه وعلمت إنه فارق الحياة.

لا، لا ادري هل فارقها حقًا ام لا!

فقد خُيل ليّ إن نبضٌ بطيء ينبض.

الغرفة كانت كلها مقلوبة ولا اثر لوجود أحد آخر.

نهضت كأنني مخمورٌ يترنح، يجوس بصري في أرجاء الغرفة في ضياع، وضاقت عليَّ الدُّنيا بما رحبت، واسبلت جفناي علىٰ أملٍ قد ضاع.

لقد مات (حمص)

وأملي الوحيد مات معه

كيف سأعرف أين ابني الآن!

لماذا اختار عقلي التوقف عن العمل هذه اللحظة!

ألِأنَّ الفقيد ليس أي أحد ... إنه قطعة من روحي!

لكن كيف مات (حمص) ولما؟

أبسبب هذا المتشكل؟

وصرخت بصوتي كله، وأنا أركل صندوقٍ خشبي كبير الحجم فسقط بدوٍ عالٍ.

(ياسمين)

استعدتُ وعيي وأنا لا أذكر ما الذي حدث ليّ، وأين ابن (حاتم)؟

كُلُ ما كُنت اتذكره هو إختبائي بحجرتي، ثم ظهور هذا المسخ أمامي، وبعدها وجدت نفسي في هذا المكان الرطب.. الغريب؛ الذي يبث الصقيع في القلب، اعتدلت من رقادي جالسة لتفحص المكان، فإذا أنا علىٰ أرضية صلدة لا يوجد بها إلا الجدران، وقد اكتظت بصناديق صغيرة الحجم لا اعلم ما محتواها، وعلىٰ مد بصري كان هُناك بابٌ خشبي وقربه لمبة ينبعث منها ضوء خفيف، فجلست في مكاني مُنهارة، وانا لا ادرك أين أنا! وما الذي سيُفعل بيّ؟

فطفقت دموع عيني تسيلُ بصمتٍ وسكون كأنما تخشى أن تصدر صوت فيخرج من يُدحرها، وتكورت علىٰ نفسي مستسلمة لمصيري، وفجأة! .. تفجرت ينابيع الأمل في صميم قلبي، عندما سمعت صوت مدوٍ أجفلني، وعلمت إني ليست وحيدة في

هذا المكان الموحش، فهرولتُ إلىٰ الباب وأخذت أطرق عليه بكفيَّ، وأصيح طلبًا للأستغاثة، وتخدلت يداي بجانبي وقد توجست خفية، من الذي سيأتي وينقذني؟

انا الآن محبوسة، ولا أعلم أين انا؟ ومن بالخارج فالذي سيأتي سيكون لموتِ، أم نجاتي.

وتبسمت في اشفاق علىٰ حالي، وانفزعت متقهقرة للخلف بصرخة مُرعبة، عندما اجفلني صوت الباب الذي بدا إن احدًا بالخارج يحاول كسره.

وجحظت عيناي على الآتي، ومع كل دفعة للباب يرتجف جسدي، ويرتعش قلبي، وما كاد الباب ينفتح، وتقع عيناي علىٰ (حاتم) حتى هرعت إلىٰ أحضانه، وتلقفتني ذراعه في لهفة وهو يسألني :

_ أنتِ بخير؟

فنشجت وأنا ادفن رأسي في صدره، وأشدد من ضمه بكل الخوف الذي يعتمل قلبي، ولم أقو على الرد، فهززت رأسي دون أن انبس ببنت شفة، فأبعدني برفق، وعيناه تدوران على محتوى الحجرة في غرابة، قبل أن يتساءل في تعجب :

_ ما هذا المكان .. وما كل تلك الأشياء؟

وتجاوزني ليتجول في الغرفة بتفحص، قبل أن يستدير إليّ مستدركًا :

_ أين لؤي؟

وجذبني من كتفيّ ورجني بقوة وهو يهتف:

_أين ابني يا ياسمين؟

فأفلت نفسي منه، وأطرقت قائلة:

_ لا أدري!

فرفع رأسي إليه والشرر يتطاير من عيناه، مغمغمًا :

_كيف لا تدرين! ألم يكن معك؟

_دعني أخبرك أنا أين هو؟!

انبعثت تلك العبارة بغتةً بصوت العم (هاشم) واتسعت عينيّ (حاتم) في غضبٍ وما كاد أن يستدير ليواجهة حتى بادره بضربة قوية على رأسه بحديدة، مع صيحته :

_ ابنك لن ترآه مجددًا، هل تعلم لِمَ؟

أمسك (حاتم) رأسه الذي تفجرت منه الدماء، وما كاد يستوعب شيئًا، او يسيطر علىٰ دواره، حتى عالجه الرجل بعدت ضربات متتالية، سقط على إثرها فاقد الوعي، وهم أن يميل ويستكمل ضربه، وقد بدت في عيناه رغبة قوية في قتله، فقفزت ممسكة بالحديدة بكل قوتي وأنا اهتف :

_ لن اسمح لك بقتله.

فقهقه منتشيًا كمجنون فقد عقله، وغمغم وهو يمسكني من رأسي بقوة:

_ آه ياسمين الرقيقة كدتُ أنساكِ! إذن يا حلوة تمتعي بما تبقى لكِ لإنكم ستموتون جميعًا، واليوم سيكون لؤي وجبة المتشكل وأنتم سنطعمكما لكلاب السكك الضالة، ماذا فكرتم؟!

إن بإمكانكم القضاء عليه؟ هُراء أنتم مجرد حشرات بالنسبة لنا، لن يقف شيء أمام شهرتي التي أصبو إليها سأنالها بعد ما أنتهي من مشروعي.

ودارت عيناه في شغف على الصناديق التي بالحجرة، وكنت أبكي من ألم قبضته وأنا احاول التملص منه لكنه دفعني على الحائط بقسوة، وخرج صافعًا الباب خلفي، فهرعت إلى (حاتم) ورفعت رأسه علىٰ قدمي، وأنا ألطم خده، في محاولة بائسة

ليستعيد وعيه، وضمدت جرحه بعدما شققت وشاحي وأوقفت دماء رأسه، وانا اهتف به :

_ قُم يا حاتم، انهض قبل أن يقتلوا ولدك، انهض أرجوك قبل فوات الأوان.

ضاقت بيّ نفسي بعد محاولاتي الطويلة لأجعل (حاتم) يستعيد وعيه، وجلست محبطة بجانب رأسه أبكي على كل شي.

على ابنه الذي سيموت وقد كنت أحبه.

على القرية وما سيحصل فيها.

وعلى نفسي التي في انتظار الموت.

وعلى حاتم أيضًا.

مؤلم أن يدرك المرء إن له دقائق معدودة، وإن ملك الموت يحوم حوله في انتظار اللحظة التي سيسلب فيها روحه.

مر الوقت طويلًا كأنما دهرٌ قد ولى، استغرقتها في بكاءٍ فلق قلبي الهَش، وتقرحت على إثره عيناي، لم أكن اعلم كم مر، وهل حل الليل أم لا.

لكن برق وجهي بالسرور، وأشرق الأمل قلبي، وفزعت إلىٰ حاتم مسرعة عندما سمعت أنينه الخافت، فرفعت رأسه وأنا أهتف في لهفة:

_حاتم، حمدًا لله إنك استعدت وعيك.

فأمسك برأسه متأوهً في ألم أضنى فؤادي، وحرك رأسه بضع مراتٍ يمنى ويسر، وهو يقول بصوت متهدج:

_لؤي، أين ابني .. يا إلهي أين أنا؟

ففاضت عيناي، وأنا أمسد على رأسه، مردفة:

_حاتم، أنت معي، حاول أن تتمالك نفسك بسرعة، وتستعيد ذهنك المشتت، عليك إنقاذ ابنك قبل أن ..

فنهض مرتاعًا، متسع العينين، فاغرٍ فاه، صارخًا:

_قبل أن .. ماذا؟ يا إلهي لؤي حبيبي لا يزل مع ذاك المسخ.

و وثب مستشيطًا غضبًا وحاول أن يفتح الباب، فلحقت به مغمغمة :

_حاتم، أرجوك حاول إن تهدأ فغضبك مسيطر عليك بالكامل، استرخ رجاءً وفكر فيمَ يمكنك فعله.

فأستدار صارخًا في وجهي، وعيناه تبرقان:

_استرخ ماذا ألا تفهمي؟ سيقتلون ابني، هل تعلمين كيف ستكون حالته الآن مع ذاك الشيطان، أنا حين رأيته كدت اموت رعبًا، فما بالك بطفلٍ صغير كـ لؤي دائم الأحتماء بي؟

فسقط في يدي، ولوذت بالصمت، ماذا عساي اقول! معه كل الحق فيمَ قال.

جال بصره في الغرفة، وهتف متسائلًا وهو يندفع للصناديق:

ماذا يوجد في هذه الصناديق؟ سأعرف ما محتواها!

أوه يا إلهِ هذا مستحيل!

صاح بها حاتم وهو يرتد للخلف ما ان نظر لمحتوى الصندوق، وراح في جنون يفتح كل الصناديق، فأقتربت في تأنى منبعه الخوف واسترقت نظرة داخل أقرب صندوق قابلني، لتطالعني وجهٌ يشبه وجه المتشكل صغير الحجم جدًا، فتقهقرت للخلف مرتعدة بعدما اغلقت الصندوق في عنف، وصحت:

_رباه! ماذا ينون؟

_لقد ماتَ حمص.

تمتم بهذه العبارة (حاتم) في إحباط يخامره الحنق، فرفعت رأسي إليه في صدمة:

_ماذا؟ مات ... مات كيف؟ ومتى؟!

استند (حاتم) بظهره على الجدار، وأخذ يدلك جبهته بسبابته وإبهمامه، وأجابني في يأس:

_عندما جئت بحثًا عنكما وجدته ميتًا والغرفة مقلوبة، يبدو إنه اختلف مع المتشكل وقضى عليه.

ثم صمت مليًا، بدا ليّ بتفكير، وأسبل جفناه، وفتحهما على حين غفلة مع صيحته:

_لا، لا لم يمت.

وعاد لصمته لكن هذه المرة لم يلبث أن قال في حيرة :

_ لا أعلم هل مات أم لا، يبدو إن نبضه كان ضعيفًا...

وسار جيئة وذهابًا، وقد طار صوابه، وهو لا يزل يتمتم:

_منذُ غياب لؤي وأنا لا أتمالك نفسي، مشتتًا وضائعًا، وتائهًا وغير مدرك لأي شيء.

وجلس أرضًا ودفن وجهه بين كفيه، وقال:

_يجب أن اهدأ وأفكر وادحر لؤي من بالي قليلًا وأتنساه.

فسكنت مكاني ولم انبس، حتى أجفلني صوته بعد ردحًا من الزمن، يسأل مستفسرًا وهو يدنو مني:

_هل أجد معكِ دبوسًا!

فتعجبت من سؤاله، و رمقته بحيرة، مكررة وأنا انهض بدوري:

_دبوس؟!

_نعم، دبوس هذا الذي تضعه الفتيات عادة في رؤسهن.

_آه، معكِ.

هتفت بها له وأنا أفهم بغيتة، فأخرجت له الدبوس و وضعته في كفه المفرود ليّ، فضم أصابعه عليه وتحرك إلى الباب، و وضعه بدل المفتاح ولم تمر ثوانٍ حتى صدر تكة نبأتنا عن فتحه، فتبسم في ظفر وهو يعيد ليّ الدبوس، ودفع الباب وتقدم أمامي وهو يقول:

_ريتاج هذا الباب لم يكن عسيرًا، أنا من كنت في ملكوت آخر.

سرنا في ممر غريبٌ حالك السواد، وارتقينا درجات سلُم من الخشب، فتساءلت متعجبة:

_ ما هذا المكان الموحش، لما هو مظلم هكذا، أين نحن بالضبط!

وصلني رده في بساطة:

_في ممرٍ أسفل الأرض.

فأصبتني الدهشة ولم أُعلق، وتابعت صعودي للدرج الطويل في إعياء وأنا ادعوا الله أن يكون ابن حاتم على ما يرام وأن نصل إليه قبل أن يصيبه مكروه.

وأخيرًا انتهت الدرجات على بابٍ خشبي آخر كان مفتوحًا، فأطل حاتم من الفُرجة برأسه ليستطلع المكان، واختلست النظر بدوري من وراء ظهره، ورأيت العم هاشم يمر من أمام عيني مقهقهًا وهو يقول:

_سأرحل وأتركك لتتغذي كيفما تشاء.

ولكن حاتم في طرفة عين كان يجذب العم هاشم بيد، واليد الأخرى يكتم بها فمه، ويسحبه نزولًا درجات السلام، وشهقت في صدمة ردعها هو بنظرة صارمة، وهمس في حِدة في أُذن الرجل:

_لا تحاول المقاومة وإلا أفرغت رصاصتي في رأسك.

ورفعت حاجبي في حيرة فعن أي رصاصات يتحدث وهو لا يملك سلاحًا؟!

لكن دهشتي لم تلبث أن خمدت في إنبهار، وأنا آراه يُسدد سبابته على مؤخرة رأسه، ويلوي ذراعه في قسوة، متسائلًا :

_ أين ابني؟

فردد الرجل في خوف :

_لا تقتلني، أرجوك يا حاتم لا تقتلني.

فدفع حاتم برأسه على الأرض في قوة، وثنى ذراعه وراء ظهره أكثر، وهو يُعاود سؤاله:

_سألتك سؤالًا واحدًا وأريد أجابته فورًا، أين لؤي ابني يا هذا؟

صرخ هاشم من الألم، وحاول أن ينزع نفسه بشتى الطرق، وهو يهتف:

_لن يتركوك وإن قتلتني يا حاتم أنا لست بمفردي.

فهتف حاتم في برود ساخر:

_ومن معك؟ حمص وقد مات.. قل ليّ أين ذاك المسخ؟

لم يجب هاشم لبرهة حاول خلالها النجاة من براثن حاتم فلم يفلح، وبعجز قال:

_وهل تظن إن حمص الأبله شريك؟ لقد قتلناه وهو يحاول إنقاذ ابنك مِنا، وقدمنا لحمه للمتشكل، فقد كان غبي ويعيق عملنا بسبب مشاعره نحوك ونحو ولدك، هل تظن إن ذاك الساذج يمكنه أن يفعل شيئًا، لو لم نعرف بمشروع أبيه وننقذه لم يكن ليكتمل.

وصمت لحظة بصق فيها بعض الدماء التي سالت إثر دفع حاتم لرأسه بالأرض، ثم أردف يقول في نبرة زهو:

_نحنُ سنملك العالم كله، سنخضع الجميع تحت امرنا، مجرد شهور فقط هي كل ما ننتظر لنحكم هذا العالم .. فقط عندما يكتمل نمو المتشكلين الذين صنعناهم، صدقني نحن سنصل للقمة، ويمكنك أن تصبح واحدًا منا، ماذا قُلت؟

أرخى حاتم قبضته عن هاشم، وسأله في اهتمام:

_وكيف سنحكم؟!

وتبسم هاشم بظفر وهو يظن أن حاتم سيميل لصفه، وردد مبتسمًا:

_لقد صنعت ما يُمكنني بالتحكم بالمتشكل!

بادره حاتم في لهفة:

_وما هو هذا الشيء؟

دفع هاشم حاتم بكل قوته فأرتد للخلف، واستدار ليواجهه وهو يصيح:

_وهل تظنني غبيًا لأخبرك!

وانقض عليه، لكن حاتم كان مستعدًا له فأستقبله بركلة قوية أسقططه أرضًا و وثب فوقه مطبقًا على عنقه، وهال له بعض اللكمات، قبل أن يجذبه من خصلاته، مغمغمًا:

_ أنت رجل قد جار عليه الزمن، وعجوزٌ قد فقد عقله، من الذي صور لك إنه يمكنك التحكم بالعالم؟ هل أنت ابله يا هذا، ومن ذا الذي سيسمح لك.

وقبض على فكه المدمي، وأتبع يقول:

_من مثلك يُلقى فى مستشفى المجانين دون أن يُلقى له بالًا، وأترك لي أمر هذا المسخ بالخارج في بكل الأحاول هو من صُنع البشر، وبشرًا سيُنهيه، ولا تشغل بالك كيف، والآن أين ابني؟

قهق هاشم مغلقًا عيناه، قائلًا:

_لا ريب أن قد قضى نحبه، فقد تركت المتشكل وهو يستعد لشرب دماءه.

صك حاتم على أسنانه في غضب، وهب صارخًا فيّ:

_أعطيني أي شيء يمكنني به تكبيله.

أجفلت للحظة لم تلبث وأنا انطلق بحثًا عن أي شيء يربطه به، حتى وجدت حبلًا غليظًا، أعطيته إياه، فدفع هو وجه وجسد هاشم للأرض

وقيد ذراعه وقدميه، و وضع في فمه قطة قماش بالية، ودون أن يعيرني اهتمامًا كان يرتقي الدرج مهرولًا ويدفع الباب في عنف، ولحقت به في قلق، ركض في انحاء المنزل متفرسًا في كل شبرٍ فيه حتى تسمر مكانه وشُخص بصره على شيءٍ ما، فنظرت لما ينظر، وصُوعقت شاهقة في رعب وتخشب جسدي، وأرسل دمعي، وأنا اكتم فمي

وعيناي ترقبان المتشكل ممسكًا بجسد الصغير لؤي الفاقد الوعي، ويقترب مباعدًا بين فكيه من عنقه، وقد أشهر مخالبه لنحره.

8_ النهاية

توقف (حاتم) وقد سقط قلبه من بين ضلوعه، بقلبٍ خافقٍ واجف، يراقب إبنه بين أنياب وحشٍ ضاري لا يرحم، بلغ اتساع عينيه ذروته، وازدرد لعابه بغصة كالحنظل.

وقطب وجهه، وضاقت عيناه بتركيز شديد وهو يرى المتشكل يهم بنحر ابنه، فصرخ صرخة رجت الأرض رجًا، ودكت حصون المتشكل وهو يستدير، لكن (حاتم) كان قد قفز قفزة عالية وهوى بنفسه فوق ذراع المتشكل القابضة على ابنه وحاول تحريره فلم ينجح، حينها اشتد غضبه وراح يلكم عين (المتشكل) بكل قوته.

وتفاجأ ..

تفاجئ الوحش بالهجوم المفاجئ..

وعجز عن الدفاع عن نفسه، وقد تورمت إحدى عينيه، وأدميت الآخرى.

فزمجر وأخذَ يطوح كفيه دون وجهة مما أدى لإرتجاج الصغير وإمتلأ جسده بالندوب، فتطاير غضب حاتم، وألقى نفسه من على جسد المتشكل، وأسرع يتناول مقعد من (الحديد) وضربه بقدم هذا الأخير، الذي سقط على ظهره إثر ذلك، فحرر حاتم ابنه من ذراعه وضمه إلى صدره بقوة، ودنت منه (ياسمين) بلهفة، متسائلة :

_ أهو بخير؟

فهز رأسه ولم ينبث وهو يلثم صغيره بكل شوق، ألهاه تفقد ابنه، على توقف المتشكل بسكون رهيب وجز على أنيابه وهو يزمجر في غضب، وما كادت (ياسمين) تحذره وإذ هجم عليه المتشكل

وقبض عليه بكامل يده ورفعه للأعلى وهو يزمجر زمجرة عالية.

فترك حاتم ابنه الذي هوى جسده لكن ياسمين تلقته في لهفة وضمته إلى صدرها وهي تلهث، ونظرها على حاتم الذي يجاهد في قبضة المتشكل الضخمة التي غطت كامل جسده بين مخالبه.

ذرفت مآقيها في عجز، وهي ترى جسد حاتم يُعتصر في قبضة هذا الأخير، وسمعته يصرخ فيها بصوتٍ شاحب:

_اخرجي يا ياسمين، خُذي لؤي وفرّي من هُنا ولا تنظري وراءك.

فبقت مكانها ترتجف مترددة، حتى هتف بلهجة متحشرجة:

_هيا قُلت لكِ اغربي عن هُنا، إذهبي.

سرت رجفة ثقيلة في جسدها وهي تتلفت لثوانٍ ثم ذهبت تعدو

ولم تشاهد حينما عض حاتم أصابع المتشكل وانزلق من يده وراح يعدو للخارج وما كاد يجتاز الباب حتى كان المتشكل يأسرهُ في قبضة يده الضخمة وصرخ..

صرخ حاتم بكل ألم

صرخة شقت سكون الليل

وشقت قلب ياسمين وهي تعطي لؤي للعم (أحمد) وتعود عدوًا إلىٰ أرض المعركة، بقلبٍ وجل مشفق على حاتم.

وكَرَّة أخرى عَلَّتْ صرخة (حاتم) تُزلزل الصم الصلاب عندما ألقاه هذا الأخير بطول يده، ليطير جسده ويهوى على الأرض، وأمسك قدمه وهو يعتدل متأوه بشدة، ورفع نظرة ليراقب المتشكل

وهو يعدو نحوه، فبلغ اتساع عينيه ذروته، وزحف للخلف بعدما عجزت قدماه عن حمله.

ولمَّا تقلصت المسافة بينهما، وأيقن إنه هالك لا محالة، قرأ الشهادة في سريرته، وأسبل جفناه على عينين مفعمتين بالألم مِمَّا ألَم به.

كان عسيرٌ عليه أن تغادر روحه وهو لم ينهي هذا المتوحش القاتل..

لم يكن الموت يخيفه بقدر ما يُهاب ما سيحدث في المستقبل.

وشحذ همته على حين غرة، وقد تولد حب البقاء من صميمه ففتح عينيه ليرى (ياسمين) تدافع عنه وقد وقفت في وجه المتشكل في محاولة لتشتيت انتباهُه، فباعد بين فكيه لتسيل من بينهما دماء امتلأ بها فمه فبدا أشبه ببركة من الدماء التي تثير الرعب في القلوب، وبكل بساطة مد ذراعه دون أن يُحرك

ساكنًا وأمسك بجسدها كأنها نملة صغيرة ورفعها أمام وجهه وهي تصرخ في انهيار يضني الأفئدة، وبكل برود مد ذراعه الآخر واستقبل به حاتم الذي أقبل عاديًا نحوه ورفعه هو الآخر أمام عينيه، وراح يقلب كفيه متأملهما في سخط، وهز حاتم قدميه في الهواء في محاولة بائسة للإفلات فلم يفلح، وراقب المتشكل وهو يدنو من فيه المخيف، وأنيابه الحادة (ياسمين)، بينما تراخت قبضة المتشكل عليه، فقبض على أصابعه بقسوة وقفز ليقف على ذراعه وعدا نحو كتفه، فتحرك المتشكل بحركات عشوائية متفاجئًا من هذه الحركات، وحاول أن يمسك بحاتم الذي وصل متعلقًا بأذنه وأخذ يضرب رأسه، صائحًا :

_ مما صنوعك يا هذا، ها أخبرني؟ أتركها هيا ... فلن اسمح لك أن تؤذها.

رمى المتشكل ياسمين من قبضته بزمجرة هادرة، واستطاع أن يقبض على حاتم الذي ضحك في توتر، قائلًا وهو يراقب فمه برعب:

_ لحمي لن تستسيغه أبدًا، لن يروق لك.

وأغمض عيناه بقوة، وبرحابة صدر رحب بالموت، وأقبلت سيارة مندفعة نحو المتشكل ودفعته فخرَّ ساقطًا على وجهه، فخرج حاتم منسلًا من بين أصابعه بأنفاسٍ متلاحقة، وسمع صوت صديقه وهو يترجل من السيارة، هاتفًا :

_ يا إلهي لم أكن أتخيل أنك صادقًا فيما اخبرتني، ظننتك تهذي لكن .. لكن هذا الشيء حقيقة، يا إلهي يا إلهي لا أصدق.

أنهى عبارته وهرع لمساعد حاتم في الوقوف، فانتصب حاتم وهو يغمغم في سخرية:

_وصدقتني الآن! كان يجب أن ترى بعينك.

وسأله في لهفة:

_أجلبت ما طلبته منك؟!

وتفجرت أساريره ورفيقه يهز رأسه بالإيجاب، فتنفس الصعداء وهو يطلب منه ان يخرج الدم الذي جلبه من السيارة، ونظر إلى النقطة التي سقط فيها المتشكل فلم يجد له أثر، فشُحن القلق قلبه، وهو يرفع صوته محادثًا رفيقه :

_أين ذهب هذا الشيطان؟ لم تخبرني ما الذي أتى بك؟

أجابه صديقه وهو يندس في السيارة:

_أصابني قلق مفاجيء عليك عندما لم ترد على مكالماتي فأتيت على الفور ...

وسمع تحذيرًا من رفيقه ممزوج بصرخة أنثوية، فأطل برأسه من فوق بابها ليجد سيارة دون سائق

تندفع نحوه بسرعة رهيبة، ففغر فاه من الدهشة، ومع تحذير حاتم الخائف جعله يدحر دهشته بعيدًا ويثب داخل السيارة ويدر محركها ويقودها للخلف، وقد دب الرعب مهجته، وظن أن لا ملجأ مما هو فيه.

وضع حاتم كفيه على رأسه بثقل قصم قلبه، وبتهالك راقبت عيناه السيارتين بعجزٍ ثقيل، ورأى المتشكل وهو بهيئة السيارة يندفع بقوة رهيبة ليصدم سيارة صديقه، التي انقلبت مرة تلو الأخرى قبل أن تستقر رأسًا على عقب.

شهق (حاتم) بدهشة، وتوقف بصره على مشهد أصابه بالتخشب التام..

مشهد السيارة التي كانت تلحق رفيقه تتحول إلى المتشكل بغتة، فاتسعت عيناه حتى كادتا تخرج من محجريهما، وتلفت حوله بعجب، وعادت عيناه

إليهما، وقبل أن يتخلى عن دهشته، أو تفارقه صدمته، رأى المتشكل يطيح بالسيارة كأنها خرقة بالية، ويتجه إلى صديقه الذي تضرج وجهه بالدماء إثر شج في رأسه وأخذ يزحف في خوف عظيم ملأ كل خلاياه، وهتف (حاتم) وهو يعدو نحوهما في إنهاك:

_يا إلهي لا، لا تلمسه.

لم يكن يدرِ ماذا عليه أن يفعل!

أو كيف يُبعد المتشكل عن صديقه!

واحتار عقله، واضطرب قلبه!

ولم يلبث إن تنبه إلى حجرٍ غليظ، فأسرع نحوه وأخذُه وركض به بكل قوته تجاه المتشكل وألقاه بكل قوته على رأسه، فزمجر هذا الأخير في ألم بيِّنَ، واستدار للخلف ولم يكن بينه وبين حاتم إلا خطوات قليلة فجز على أنيابه ومد يده ليلتقطه،

وتحرك حاتم لكن .. هذه المرة لم يفر بل اندفع نحوه وهو يتحاشى قبضة المتشكل التي قُلما كاد أن يقبض عليه تسقط يده بدوٍ عالٍ على الأرض، وانزلق حاتم من بين قدميه ليتجاوزه وعاون صديقه على الوقوف، لكن ما كاد أن يقفا حتى هتف رفيقه في جَزع:

_ الدماء يا حاتم، الدماء..

صوت فحيح حاد مصحوب بزمجرة كادت أن تثقب أذنيهما، فتسمرا لثوانٍ والتفتا بخوف ليريا وجه المتشكل المخيف بجوار رأسيهما بالضبط، فتحركا بخطوات بطيئة للوراء في محاولة للفرار، في ذات الوقت كانت صيحة (ياسمين) تعلو في المكان وهي تلوح بحبلٍ سميك في طرفة أنشوطة ثم ألقته تجاه عنق المتشكل، فعلقت بعنقه فتراجعت بطرف الحبل الآخر وهي تسحب ليسقط المتشكل إثر ذلك.

_توقفن وإلا قتلته، أنا لا أهدد فقط ..

توقفت ياسمين عن السحب، وألتفت حاتم وصديقه إلى مصدر الصوت، و تفاجئوا بالعم أحمد يمسك بابن حاتم ويوجه نصل سكين إلى عنقه، بملامح جامدة صارمة، والصغير ساكن بين كفيه، يُردد في هدوء:

_وإلا قتلته وإلا قتلته ...

وفي غمرة صدمة (ياسمين) لم تنتبه إلى إنها فلتت الحبل، وبدت كأنها صنمٌ مشخص البصر من هول الصدمة، أما صديق حاتم فقد هتف في ألم وذُعر :

_ يا إلهي من هذا؟

وقال حاتم وهو يجز على أسنانه في غضبٍ:

_أنت! أنت يا عم أحمد؟

اومأ العم أحمد برأسه في حدة، وهتف بصوت محتنق:

_نعم أنا، مُفاجأة .. أليس كذلك؟

واستتبعَ يقول وهو يلوح بالسكين:

_أنت غبي يا حاتم، فمن يضيع فرصة العمر مثلك هو بحق غبي .. لقد كنت أنا طول الوقت من يلعب بك وبتفكيرك، وأنا من ركضت وراءه ذلك اليوم.

ثم اردف يقول وهو يشير إلى المتشكل الذي بدا عليه الإعياء:

_انظر إلى مشروعنا الذي سيصل بنا للعالمية، انظر .. هل ترى ما يُمكنه فعله؟ لن نحتاج لأي شيء في وجوده، يمكنه هو أن يتحول لأي شيء نريد، ألا ترى أن هذا يستحق!

سار حاتم نحوه، وهو يقول في تهكم:

_بلى ...

تبسم العم أحمد في ظفر، سرعان ما تلاشت بسمته تدريجيًا حينما تابع حاتم في غلظة:

_أرى إنك تستحق القتل وبأشد الطرق إيلامًا.

فقهقه الرجل في سخرية، وغمغم:

_هُراء يا حاتم أنا لن أموت، بل أنتم الأربعة من ستموتون، انا لم أتسلى بوالد تلك الغبية ياسمين دون شيء ...

وفجأة ... دوى صوت رُصاصة في المكان، وجُحظت عينا الرجل في ذهول وألم، وتراخت يده عن الصبي، وسقط السكين من كفه الأخر، وما كادت قدمين الصغير تُلاقي الأرض حتى هرول إلى أبيه وضمه بشدة، في ذات الوقت الذي سقط فيه العم أحمد على وجهه جُثة هامدة.

وتلفتوا جميعًا عن من أطلق النار، وإذا بحمص يقبل من أمام منزله بمسدس لا يزل فوهته يُخرج منها الدُخان، ويقول بلهجته المتلعثمة، وكلماته المتقطعة:

_لن أسمح لك أن تقتل صديقي..

صاح حاتم بدهشة:

_حمص!! ألم تمت؟

فنفى حمص، قائلًا:

_لم أمِت بعد لا يزل بيّ نفسٌ يتردد، لقد غدر بي هاشم لإنني لم أوافق أن يقتل صديقي ولدك.

دُهش حاتم، وسأله في حيرة:

_صديقك؟!

أجابه حمص وهو يتقدم إليه:

_نعم صديقي .. المتشكل هو صديقي الوحيد.

واتضح كل شيء..

كل شيء دون إستثناء..

حمص يعتقد أن المتشكل صديقه، لذا كان يلوذ بالصمت عن أفعاله مخافةً أن يخسره، واستغلا أحمد وهاشم هذا لخططهم الدنيئة.

لكن عندما بات لحمص صديق أخر وهو لؤي.. فلم يسمح حمص لرفيقه المتشكل كما يدعي أن يصنع ذلك..

بالفعل استغلا الأمر بصورة جيدة، ولصقا أمر كمالة المشروع بحمص المسكين.

وهنا كان على حاتم، أن يستميل حمص، لذا قال وهو يُبعد ابنه عنه، ويمسك بكتفي حمص، ويحدق في عينيه بإمعان:

_هذا الذي تدعوه بالمتشكل ليس بصديق يا حمص، إن وجوده خطر ومؤذي، وقد يُدمر الكثير من البشر، نحنُ فقط رفقاءك يا حمص، أن تركنا المتشكل فسيقضي علينا جميعًا، هل تُريد أن يموت لؤي صديقك؟.

لاذ حمص بالصمت وبصره على المتشكل الذي بدا متهالكًا للغاية، وفي تردد هز رأسه بالنفي، واصرف بصره إلى لؤي وتبسم في سعادة كأنه طفلًا صغير، وصرخ وهو يقفز:

_لا، لن اسمح بأحد ان يؤذي صديقي الجديد.

وتلهي في لهوه الذي جاء في غير أوانه، وحاول حاتم في ملل أن يعرف منه كيف يقضي عليه.

_حاتم، يا إلهي أنظر.

هكذا صرخ رفيقه وهو متسع العينين يراقب المتشكل الذي وقف على قدميه فجأة وكأن كل قوته

قد استردت داخله، وفرد ذراعه الذي لم يلبث أن تشكل إلىٰ سيفٍ ذا نصلٍ لامعٍ حاد، وفي طرفة عين كان يتجه إلى حاتم الذي تقهقر للخلف ثم استدار وانطلق يعدو، بلا خطة ...

بلا هدف...

فقط هرب من أجل حياته وحياة من حوله...

وتحولت قدماه إلى آلة للعدو، وسمع صوت خطوات مطارده تقترب ...وتقترب ... وتقترب وفي خوف دق قلبه، وسرت قشعريرة وجِلة في كامل جسده، وأحس أن نهايته تقترب وإن لا فائدة من الفرار، فإنه يجب أن يقف ويقاتل..

وتوقف ..

توقف في حركة مباغتة وأستدار في بسالة ليتلقى ضربة سيف شقت صدره شقًا وصرخ في ألم وهو

ينحني ممسكًا بصدره، ورفع بصره إلى المتشكل الذي رفع سيفه عاليًا وهوى به ليفصل عنقه..

وأغمض حاتم عيناه في عنف، لكن .. رأسه لم ينفصل، ولم يتلقَّ أيُّ ضربة قاضية ففتح عيناه ليستعلم عن الأمر، فوجده يلقي السيف من يده ويتناول جسده ويرفعه مباعدًا عن فكيه مبتغيًا أكله، فازدرد حاتم لعابه بكل رعبه، وأغلق عيناه كي لا يرى فمه البشع، وأحس بشيء يمر من جواره كأعصار مفاجأ أربكه، ورأى صديقه يلقي زُجاجة بلاستيكية مليئة بالدماء في فم المتشكل، أعقبها بأخرى وأخرى وهذا الأخير يبتلعها دون أدنى مقاومة، وبغتة!.. ترنح فاقدًا لأتزانه، وترك جسد حاتم وهو يصدر خوارًا متألمًا ويزوم وأمسك عنقه بكفيه.

ورويدًا رويدًا بدأ جسده يتقلص، وأنيابه تختفي، وراقبه حاتم وهو مستلق على ظهره وجعله الذهول ينسى كل ألمه..

فجرح صدره كان سطحيًا، والسقوط أدى لألم حاد في ظهره، كل هذا لم يُعنيه وهو يستند أخيرًا على كف رفيقه المفرود، وراحا معًا بصدمة يراقبان حمص الذي اقترب بدلوٍ مملوءٍ غاز أفرغه كله على المتشكل، وألقى الدلو من يده، وأخرج

علبة الثقاب وأشعل منها عودًا وهو يقول دون أن يلتفت:

_فليذهب أحد ويحرق الصناديق التي بالمنزل.

لم يجبه أحد، فكرر حديثه وهو يُراقب ألسنة النار تأكل في المتشكل، فدفع حاتم رفيقه وهو يغمغم ولا يزل على ذهوله:

_إذهب أنت وياسمين وأحرقا الصناديق، ياسمين ستدلك عليها.

فذهب صديقه وهو يراقب إحراق المتشكل، بينما دنا حاتم من ابنه وضمه إلى صدره وهو يهمس له بصوتٍ رخيم:

_لقد انتهينا يا حبيبي، انتهينا.. حمدًا لله.

☆☆☆☆☆

_لقد تم إداع حمص في المصحة النفسية، ولم يصدق أحد بوجود المتشكل وقد ظن الجميع إنها إحدى الأساطير.. أما الحقير هاشم فستعفن في السجن.

قالها حاتم وهو يقف قبالة ياسمين أمام المدرسة التي تُدرس فيها، فتبسمت له ياسمين في رقة، وقالت:

_ومن ذا قد يصدق؟! أنا وأن لم أرى وأشاهد بنفسي لِما كُنت سأصدق.

_معكِ كل الحق.

داعبت ياسمين خُصلات الصغير وأدمعت عينيها، وهي تستطرد بغصة ألم:

_سأركم مرة أخرى أليس كذلك؟

ألتمعت عينا حاتم بوعدٍ صادق، وعهدًا للقلب، وهو يجيبها في لطف:

_بالطبع، سأجلب لكِ لؤي دائمًا لتريه.

زفرت ياسمين في ارتياح، وتبسمت قائلة:

_إذًا فيمكنني أن اقول إلى اللقاء.

أشرق قنديل الحب قلبيهما، ومد حاتم كفه مصافحًا..

وتصافحا..

وتعانقت أناملهما في عناقٍ قصير..

وتلاقت خلالها العيون وحكت الكثير من عبارت الحب التي لا يجيدها اللسان، وردد حاتم بنبرة رغم صلابتها إلا إنها مفعمةٌ بالحنان:

_إلى لقاءٍ قريب.

وتابع قلبه هامسًا☹ قريبًا جدًا).

☆☆☆☆☆

صندوقٌ خشبي يفتح غطاءه ويقفل، واستمر هكذا لدقائق معدودات، قبل أن يفتح كاملًا وينقلب ويخرج منه جسدٌ أسود صغير مصبوغٌ بالدماء، له عيناه صغيرتان حمروان مخيفتان، تسيلان بسائل أحمر

قانٍ، وأخذ يقفز خارجًا عن المكان الذي كان فيه، ويتوارى خلف جدارٍ وهو يطل برأسه مراقبًا مجموعةٌ من الأولاد يلهون بالكورة، التي ركلها إحدهما فتدحرجت بجوار الشيء الأسود الذي شعت عيناه ببريقٍ مخيف، وراقب الصبي الذي جاء عاديًا وألتقط الكورة وهو يضحك منتشيًا وأخذ يضربها بالأرض وتقفز لأعلى فيلتقطها بيديه، وبغلظة مشحونة بالشراسة مد الشيء الأسود يديه التي أسفرتا عن مخالب حادة تثيرُ الرعب وسحب الصبي وضمه إلى جسده حتى أخفاه، وراح يقفز عائدًا من حيثُ أتى.. وعندما توارى عن الأنظار ترك جسد الطفل الذي سقط على ظهره، وما كاد يرى وجه الشيء الأسود حتى بكى صارخًا بنشيجٍ عال يُفطر القلب، وزحف للوراء وهو يرتجف رجفة شديدة تُبكي الحجر، وانقض عليه (الشيء)

وفي غمضة عين كان يطبق على فمه وينحر عنقه بمخلبه وفي انتشاء شرع يمتص دماءه في ارتياح، وسكن جسد الصغير جاحظ العينين، لا تزل أثر الدموع باقية على خديه رغب غياب روحه.

تمت بحمد الله

/6/202315